موسم صيد الفئران

موسم صيد الفئران

نهيز

عمرو ممدوح

تصميم الغلاف: محمد دربالة

رقم الإيداع: 2019/7485

I.S.B.N:978- 977-6640-56-6

الطبعة الأولى 2019م

الإدارة: 17 ش عزت باشا المطرية، القاهرة.

المدير العام: آية سعد الدين

مدير النشر : د. رامي عبد الباقي

هاتف: 01099387500 - 01147633268

E – mail:zeinpublish2017@gmail.com
Facebook: Zein Publish

جميع الحقوق محفوظة©

عمرو ممدوح

موسم صيد الفئران

"نهيز"

رواية

إهداء

أمي.. زوجتي.. أبنائي

أحبكم فأنتم دنياي بلا منازع

***

أصدقائي الذين أجهدتهم في الاستشارة

كنتم نعم الصديق والرفيق والعون

***

"فريق صرخة فزع"

أصدقائي وزملائي، أسرتي الأدبية الحقيقية..

***

إليكم جميعا أهدي كتابي

عمرو

شكر واجب

***الكاتب حسني الجهيني**

***الكاتب إسلام سمير عبد الرحمن**

***الكاتب محمد محي طلبة**

***كل أعضاء فريق صرخة فزع**

***أبنائي/ سيف الدين عمرو ممدوح – سلمى عمرو ممدوح**

***ذلك الجندي المجهول القابع خلف كتاباتي دون أن يراه أحد..**

(شكرا جزيلا لكم على رأيكم ومجهودكم في إخراج هذا العمل كنتم نعم العون ونعم السند)

عزيزي القارئ..

أجد أنه من حقك أن تعلم هذا الجهد الجهيد الذي استنفده مؤلف هذه الرواية، لتخرج لك بهذه الصورة المرضية له ولك..

يجب أن تكون الساعات التي ستقضيها جالسًا خلف مكتبك، أو ممددًا على فراشك لتقرأ كتابي ذات قيمة حقيقية لي ولك على حد سواء.. لهذا جلبت لك كل ما تحتاج إليه من معلومات صحيحة وحقيقية يمكنك أن تضيفها إلى رصيدك المعلوماتي، حتى لا يفصلنا الخيال الروائي عن الثقافة والمعلومة، لهذا اعتمدت على معلومات ومراجع موثقة ليكون وقتك الممتع أيضا مفيدا..

شعار كتابي..

اقرأ..

استمتع..

تعلم..

وفي النهاية أهدي إليك أيها القارئ العزيز كتابي محملا بروح المغامرة والتشويق..

عمرو

"وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ"

الأنبياء 105

"لِأَنَّ ٱلْمُبَارَكِينَ مِنْهُ يَرِثُونَ ٱلْأَرْضَ،"

مزامير داوود المزمور 37

"يبدو العالم مظلماً بالنسبة لمن يغطي عينيه"

الفصل الأول

اقترب الطبيب الشاب بمعطفه الأبيض إلى ذلك الرجل متوسط الطول ذي البزة الأنيقة ووجهه المكتظ وشعره الرمادي..

تنحنح الطبيب في توتر فيبدو أنه يقف أمام شخصية غاية في الأهمية..

التفت إليه الرجل ذو البزة الرسمية متسائلا:

. ما الأخبار أيها الطبيب؟

عدل الطبيب من نظارته الصغيرة وقد احتقن وجهه بشدة فزادت بشرته الفاتحة احمرارا وتلعثم قليلا قبل أن يقول بصوت متهدج:

. للأسف سيدي لقد انتهى الأمر.

لم يبدو أي تأثر على الرجل لكنه صمت برهة قبل أن يلتفت إلى الطبيب ويقول بصوت هادئ متزن:

. ليكن أيها الطبيب..

ثم رمق الطبيب فجأة بنظرة صارمة وهو يردف بنفس الصرامة رغم نبرة صوته الهادئة:

. إنك تعلم بالطبع حساسية الأمر.

هز الطبيب رأسه موافقا وهو يقول كأنه يتمتم:

. أعلم يا سيدي.

. حسنا يجب أن يظل الأمر طي الكتمان حتى تسنح الفرصة..

لم يجب الطبيب ولكنه هز رأسه موافقا وكاد أن ينصرف قبل أن يستدرج قائلا:

. لكن يا سيدي..

تلعثم قليلا قبل أن يردف قائلا وقد تصببت جبهته عرقا:

. ماذا عن السبب؟

رمقه الرجل بنظرة نارية شعر الطبيب معها إنها تخترقه، وقال:

. لقد قمت بعملك أيها الطبيب.

شعر الأخير بنفسه يهرع مبتعدا عن الرجل كأنما تطارده شياطين الدنيا في حين تابعه الرجل المهم حتى تأكد من ابتعاده فأخرج من جيبه هاتفه النقال وضغط عدة مفاتيح قبل أن يضعه على أذنه ويقول:

. يجب عليك التحرك بسرعة الوقت يداهمنا ولن يمكننا كتمان الأمر مطولا..

ثم صمت لحظات قبل أن يقول بعصبية:

. أنت مجنون! هل تريدني أن أخرج وأعلن مقتل الرئيس في حمام قصره على يد حيوان!

***

انطلقت صرخة عالية اقتلعته من مكانه هو وزوجته لينطلقا مسرعين إلى غرفة الصبي الصغير..

كان المشهد مثيرا للاشمئزاز لقد كان الطفل ذو السنوات الخمس متكوما على نفسه في ركن الغرفة يخبئ وجهه بكفيه الصغيرتين وعلى بعد عدة خطوات كانت جثة قطة ممزقة تماما وبشكل مزري..

أشاحت الأم بوجهها متجنبة النظر إلى ذلك المشهد المفجع وهي تهرع مسرعة لتلتقط طفلها من ركنه الذي حبس نفسه فيه وتحتضنه بشدة..

. يا إلهي ماذا حدث هنا؟!

نطقها الأب بالرغم عنه وهو يرى المشهد المروع لقطة ابنه الذي قال بصوت متهدج وهو ما زال يبكي:

. هم لقد قتلوها..

وأشار باتجاه نافذة غرفته..

اتجه الوالد بسرعة تجاه النافذة لكنه لم ير أي شخص يحاول الفرار و....

توقف بصره فجأة على نقطة سوداء على الجدار الخارجي للفيلا، فيشعر بنبضات قلبه تسرع بشدة وتجحظت عيناه عن أخرهما..

. ماذا هناك؟

انتزعه صوت زوجته من تلك الحالة العجيبة التي امتزج خلالها الرعب والدهشة..

نفض عن رأسه أفكاره وحاول جاهدا أن يخرج صوته هادئا رغم شحوب وجهه:

. لا شيء لا شيء يا عزيزتي..

نظرت إليه زوجته نظرة ذات مغزى للحظة قبل أن تقول:

. سأضعه في الفراش في غرفتنا..

هز رأسه موافقا وأخذ يتابعها ببصره وهي تحمل طفليهما وتخرج تاركة إياه مع جثة القطة الممزقة، وما أن تأكد من خروجها حتى اتجه مرة أخرى إلى النافذة طالا برأسه كأنه يتأكد من صحة ما رآه، لكن كان كل شيء هادئا تماما..

اتجه إلى شرفة متسعة في نهاية ممر قصير بالفيلا وأشعل غليونه لنفث دخانه ورأسه تدور في عدة اتجاهات..

. ماذا رأيت في النافذة هناك؟

جاءه صوت زوجته من خلفه، فأشاح بوجهه بعيدا وقال:

. لقد أخبرتك هناك لا شيء على الإطلاق!

جذبته من كتفه ليواجهها مباشرة وقالت:

. وليد أنت تكذب لقد رأيت شيئا هناك صح؟

سحب على رئتيه دخانا كثيفا من غليونه قبل أن يقول:

. صدقيني لا يجب أن تقلقي.

بالرغم عنها ارتفع صوتها تكاد تصرخ:

. هل تطلب مني الهدوء وطفلي يرى شيئا ما يمزق جثة قطته بهذه البشاعة!

ضمها إليه قائلا:

. لو كان في الأمر خطر صدقيني ما كنت لأتوانى في إخبارك واتخاذ كل ما يلزم لحماية ولدنا وحماية أنفسنا.

قالت:

. حسنا أخبرني بما رأيت؟

تنهد بعمق وقال:

. حسنا سأخبرك..

وبدأ يروي لها ما رآه عبر النافذة وفكاها يتباعدان من فرط الدهشة..

***

. هل ترى يا سيادة اللواء أن مقتل رئيس البلاد عن طريق عضة في عنقه شيء منطقي؟!

قالها الرجل ذو البزة الرسمية بعصبية وهو يحدق من خلف مكتبه الضخم إلى وجه اللواء ذي الثياب المدنية الجالس أمامه في حين نظر الأخير إليه قائلا:

. هذا ما ذكره تقرير الطب الشرعي يا سيدي وبالتالي لا مناص منه.

انتفخت أوداج نائب الرئيس بشكل ملحوظ وقد أحمرت وجنتاه بشدة وهو يقول:

. أعلم كل ما تقول لكني أتعجب أن يكون هذا رأي رئيس المخابرات العامة!

. ولما العجب سيدي فهذا رأي الطب وهم أعلم بمثل هذه الأمور؟!

تنفس نائب الرئيس بعصبية زائدة وهو يلحظ ذلك البرود على وجه رجل المخابرات الأول وهو من كان يظن طوال سنوات عمره التي اقتربت من الستين أن رجال المخابرات يشككون في أطراف أناملهم أما هذه السلبية فأمر غريب حقا؟!

. اسمع سيادة اللواء هل من المنطق أن قصر الرئاسة يتسلل إليه حيوان مسعور بهذه البساطة؟! ليس فقط بل ويهجم مباشرة على وريد الرئيس فيذبحه ذبحا؟

. لا أفهم ماذا تقصد تحديدا؟

نهض النائب من خلف مكتبه وهو يعقد ساعديه خلف ظهره ويقول:

. أنا لا أشكك في تقرير الطب الشرعي لكنني أثق أن في الأمر شبهة ربما هو سلاح بيولوجي تم إدخاله إلى القصر بهدف اغتيال السيد الرئيس؟

زام اللواء وتفكر قليلا قبل أن يقول:

. هذا يعني وجود خائن داخل القصر وهذا سيلقي بنا في مواجهة كبيرة!

قال النائب بصرامة:

. إن كان الأمر يقلقك إلى هذا الحد، فلا بأس يمكن تكليف شخص آخر به؟

كانت الرسالة واضحة لرئيس المخابرات إما القيام بعمله أو استبداله، فامتقع وجهه بشدة وقال بصوت بدا متحشرجا:

. كلنا في خدمة الوطن سيدي..

خرج اللواء تاركا نائب الرئيس خلف مكتبه مستغرقا في تفكير عميق.. عميق جدا..

***

منزل ريفي منخفض البناء من طابق وحيد وبالخلف منه بناء طيني مربع متسع بعض الشيء سقفه من سعف النخيل وبوص الذرة الجاف..

الجو شديد الحرارة جعل جابر يتململ في فراشه رغم حاجته الملحة للراحة بعد عناء طوال النهار في تهيئة عدد قليل من قراريطه التي ورثها عن والده ولا يعلم أحد سر تمسكه بذلك الحقل الذي لا يكاد يسد رمق زوجته الشابة وطفليه..

انتبه فجأة جابر على صوت حركات عصبية وكأن حالة من الهياج قد أصابت بقرته العجفاء فالحركة سريعة وصوت خوار مكتوم..

قفز جابر من مكانه وهو ينظر إلى زوجته التي غابت في ثبات عميق حتى أنها لم تشعر به وهو يرفع الفراش ليسحب شيئا أسود من أسفله ويهرع إلى الخارج!

اطمأن جابر على بندقيته العتيقة وهو يدس بماسورتها طلقة خرطوش وحيدة.

كان ظنه الوحيد أن هناك مجموعة من لصوص البهائم الذين انتشروا خلال الآونة الأخيرة في تلك النواحي.

بحذر اقترب جابر من حظيرة البهائم وصوب بندقيته مباشرة إلى الداخل و...

قفزت مقلتاه خارجا والبندقية تسقط من يده فما كان يراه مروعا بحق!!!

***

. هل تعتقد أنني يمكن أن أظل هنا بعد ما رويته الآن؟!

كانت رغد ثائرة بشدة وهي تنظر إلى زوجها وليد الذي بدا واجما حقا، فزوجته لها كل الحق في ثورتها خاصة إذا كان الأمر يتعلق بولديهما، لكن وليد المتخصص في علم الوراثة يعلم أن ما حدث لن يتخطى حدثا عارضا ولكن تضخيم زوجته شيء مقبول خاصة بعد إصراره وإرغامه لها على العودة إلى مصر، ليس هذا فقط بل اختياره لهذه الفيلا في هذا المكان النائي بالقرب من منطقة صحراوية منعزلة، ورغم أن هدفه الأول كان إقامة مختبره الموجود بقبو الفيلا واستمرار أبحاثه التي رفض استمرار إجرائها بأمريكا..

. إنني أحسدك بشدة على هذا البرود، حتى وأن كان الأمر يتعلق بالطفل!

كانت ترمقه مع جملتها الأخيرة بنظرة حنق ومقت..

أمسك بكتفيها وقال محاولا تهدئتها:

. أنتِ مثقفة وتعلمين جيدا أن ما حدث لا يعدو كونه مصادفة وليس له علاقة بكل ما يثير سخطك منذ قدومنا من ثلاثة أشهر..

نظرت إليه متعجبة وهي تنظر إلى عيني زوجها الهادئتين وقالت:

. هل رؤية الطفل لهذا المشهد الذي قد يحطمه نفسيا ليس كفيلا بثورتي! بل ما شاهدته بأم عينك ليس كافيا لحزم أمتعتنا والخروج فورا من هذا المكان؟!

ابتسم بهدوء وقال:

. إن هذه الكائنات تأكل جثث موتاها وهذا أمر متعارف عليه ولكنها حتما لا تقتل كل ما في الأمر إن الهرة ماتت لسبب ما وقد جذبتهم رائحة الجثة، ولأن الطفل لا يعي كل هذا ظن أنهم قتلوها..

صمتت لحظة وهي تتفحص وجهه بعصبية قبل أن تتركه وتسرع مبتعدة..

تابعها بنظره وهو يشعل غليونه مرة أخرى ويستنشق كما ضخما من دخانه وقد شرد ذهنه فرغم أن تلك المعلومة التي أخبرها توا لزوجته صحيحة إلا إن ما حدث لم يكن منطقيا على الإطلاق ولهذا قرر اتخاذ إجراء سريع ودون تردد..

***

في مبنى المخابرات العامة غرفة اجتماعات وحول طاولة مستطيلة طويلة يحيط بها عدد كبير من المقاعد الجلدية الداكنة وعليها جلس خمسة رجال يرتدون بزات سوداء موحدة وعلى صدر كل منهم وضعت بطاقة حمراء اللون بها اسمه ومنصبه.

كان كل منهم مستغرقا في عدد من الأوراق يراجعه قبل بدء الاجتماع الطارئ الذي دعا إليه رئيس الجهاز بعد تكليف كل شخص منهم بمهمة محددة..

لم تمض الدقائق الخمس حتى دخل اللواء بطوله الفاره وجسده الرياضي رغم سنوات عمره التي بدأت في الستين..

جلس سريعا على مقعده على رأس الطاولة وتفحص سريعا وجوه الحاضرين قبل أن ينظر في ملف أمامه وقال:

. أعتقد أن كل منكم قام بما كلف به؟

هز الجميع رؤوسهم بالموافقة، فأردف قائلا:

. حسنا لنبدأ بالتقرير الأمني..

اعتدل أحد الجالسين وقال بنبرة واثقة:

. سيدي كل التقارير الأمنية لا تحتوي على دخول أي عناصر مشبوهة خلال الفترة الماضية إلى البلاد أو أشخاص لهم علاقة بالموضوع الذي حددته سيادتك، إلا عنصر شخص واحد رغم أنه باحث في علم الوراثة لكن بالتحري عنه لم يثبت عنه انتماؤه أو حتى اتصاله بأي من منظمات أو أجهزة مخابرات..

بدا الاهتمام جليا على وجه رئيس المخابرات وهو يسأل ضابطه:

. من أين جاء وما جنسيته؟

قلب الضابط في أوراق أمامه وقال:

. قادم من الولايات المتحدة الأمريكية مصري ويحمل الجنسية الأمريكية اسمه وليد عبدالعزيز يونس ويقطن بفيلا بمنطقة نائية..

رمقه الرئيس بنظرة غاضبة وهو يقول:

. إنه عنصر تتوافر فيه كل مؤشرات العميل وموضوع بحثنا فكيف تتجاهله هكذا؟!

تلعثم الضابط قليلا قبل أن يقول:

. سيدي بالطبع لم أتجاهله فهو تحت المراقبة منذ وصوله للبلاد كأي شخصية مثله وكل التقارير تثبت أنه غير موضع للشبهة..

تردد الضابط قليلا وهو يستدرج قائلا:

. كما أن بصحبته زوجته وطفله فليس من المنطقي أن يكون هنا بهدف إجرامي ويصطحبهما معه!

. لا شيء منطقي في عالمنا سيادة الضابط، وطرق التمويه عديدة هذا الرجل يجب أن يوضع تحت المجهر خلال الأيام القادمة..

احتقن وجه الضابط بشدة وهو يهز رأسه موافقا، في حين التفت الرئيس إلى باقي رجاله قائلا:

. هل لدى أحدكم جديد؟

تنحنح أحد الضباط قائلا:

. نعم سيدي بشأن استخدام بعض الحيوانات في أعمال مخابراتية..

. هات ما عندك؟

قالها اللواء وهو ينظر إليه منتبها، عندما أردف الضابط قائلا:

. لم يستطع عملاؤنا في أجهزة مخابرات معادية إثبات استخدام مثل هذه الطريقة في الاغتيالات ولا حتى التجسس وهي استخدام الحيوانات، لكنني سيدي بالبحث في بعض التقارير من جهات صديقة وجدت بعض الأمور التي يجب عرضها عليكم..

قال اللواء:

. كلنا آذان صاغية.

ابتلع الضابط لعابه قبل أن ينظر في بعض أوراقه ويقول:

. هناك اتهامات عدة لإسرائيل باستخدام حيوانات في مهمات تجسس واغتيالات منها "فقد نشرت صحيفة القدس العربي في أغسطس 2015 مقالاً بعنوان: "الدولفين الجاسوس" آخر الابتكارات العسكرية الإسرائيلية لاغتيال رجال كوماندوز حماس"، يتحدث عن كيف جندت إسرائيل الدولفين وحولته إلى قاتل لاستخدامه في عمليات قتل كوماندوز كتائب القسام، باعتمادها على خاصية حب الدولفين للبشر واللعب معهم، للوصول إلى أفراد تلك الوحدة المقاتلة. وتحدث الموقع عن تقارير تذكر أن الدولفين ليس مزوداً بجهاز تجسس

وكاميرات مثبتة على ظهره فقط، بل هو مرفق بجهاز يطلق سهاماً حديدية لقتل من يقابله. وينهي الموقع مقاله بخبر أن الضفة الغربية تعاني أيضاً الخنازير البرية والكلاب المتوحشة، التي يطلقها الإسرائيليون لمهاجمة المزارعين القريبين من مستوطناتهم".

نظر الضابط إلى عيني رئيسه محاولا استنباط تأثير تلك المعلومات على وجهه إلا أن وجه الأخير ظل جامدا وهو يتابع حديث الضابط الذي نظر إلى الأوراق بين يديه مرة أخرى وهو يستدرج قائلا:

. لم يقتصر الأمر على إسرائيل وحدها ولكن هناك شائعات غير مؤكدة حول استخدام روسيا وأمريكا لمثل هذه الطريقة.. الأمر الذي دعا أحد وزرائنا إلى اتهام إسرائيل ومسئوليتها عن الحادث الشهير من استهداف أسماك القرش للمصطافين في شواطئنا المصرية وإن ثبت كذب هذه الادعاءات..

صمت الضابط منتظر رد رئيسه الذي بدا أنه يحاول تحليل تلك المعلومات الجديدة التي عرضت عليه حالا قبل أن يعتدل في جلسته ويقول:

. إذن لدينا الآن عدة خيوط للسير خلفها، أولا ذلك العالم المدعو وليد يونس، ثانيا تكثيف الجهود للتأكد من صدق مثل هذه العمليات المنسوبة للحيوانات و..

قطع حديثه صوت هاتفه النقال فنظر إلى الرقم الظاهر أمامه على الشاشة فتمعضت ملامحه وهو يضغط زر الإجابة دون أن ينطق بكلمة واحدة وقسمات وجهه تتقلص وبشدة..

***

الفصل الثاني

عدل حسين مدكور أخصائي الكيمياء الحيوية من نظارته الطبية على وجهه وهو يجلس على مقعده الوثير خلف مكتبه في أحد أركان مختبره السري بتلك المنطقة النائية، وهو ينظر إلى الرجل الجالس أمامه الذي أبدت تقاسيمه توترا بالغا، في حين قال مدكور بهدوء:

. أنا لا أفهم تماما ما يقلقك تحديدا، فكل شيء يسير طبقا لما خططنا له تماما؟!

اهتز جسد الرجل البدين ومسح على صلعته وهو يقول:

. إن الأمر يتجه إلى الخروج عن السيطرة تماما!

ابتسم حسين مدكور ابتسامة خبيثة وهو يغمز بعينيه قائلا:

. هل توقفت ملايين الجنيهات عن التدفق إلى حساباتك البنكية؟!

هز الرجل البدين رأسه نافيا، فاكتست ملامح مدكور بالجدية والقسوة وهو يقول بنبرة مرتفعة:

. إذا لا مبرر مطلقا لهذا القلق؟

ثم صمت برهة وتنفس بعمق وقال مردفا:

. اسمعني جيدا، لقد ساعدتك لتكون حسني أيوب ذلك الاسم الأكبر الآن في مجالك فلا تدع مشكلة تقنية بسيطة تعكر علينا صفو نجاحنا.

نهض حسني من مقعده وأشار بعصبية إلى الخارج وهو يقول بنفس العصبية:

. أنت هنا غارق بين فئرانك وتجاربك ولا تدري ما يدور بالخارج!

ضحك حسين بشدة وقال:

. وما شأننا بالخارج ما يهمنا هو ما بالداخل..

وأشار إلى جيبه..

تنهد حسني بعمق محاولا أن يبدو قويا وهو يقول:

. اسمعني جيدا أنا لن أسمح أن يضيعني عالم مجنون مثلك، وسأعطيك فرصة لتصلح ما أفسدته..

أنهى عبارته وخرج مسرعا، تابعه مدكور بناظريه وهو يبعد خصلة من شعره البني المبعثر على رأسه قبل أن يتقدم نحو أحد الصناديق الزجاجية وينظر بداخله مدققا ليرى جرذ صغير بدا هادئا وهو يبادله النظرات، فابتسم مدكور وقال محدثا الفأر:

. لا تقلق يا صديقي فلن يوقفنا أحد الآن..

ضم الفأر شفتيه فظهر نابين رغم صغرهما إلا أنهما بدا كبيرين بالنسبة لحجمه الصغير..

***

مستودع غلال قديم يقع بين مساحات شاسعة من الحقول، عبارة عن مبنى مكعب الشكل مبني من اللبن..

وقف الشاب الريفي الملامح برغم القميص والسروال اللذين جعلاه يبدو من أولئك الذين يحاولون إظهار التمدن..

كان يدندن بإحدى الأغاني الرومانسية وقد اكتست ملامحه بسعادة جمة وهو يدور حول نفسه فهو في شوق لما ينتظره..

كان المستودع شبه خاويا سوى من بعض قش الأرز الجاف الذي تناثر على أرضية المكان الجافة..

كان الشاب قد اندمج تماما في أغنيته حتى أنه لم يلحظ صوته الذي بدا مرتفعا فأخذت جدران المكان ترددده وهو يطرب بصوته، لكنه توقف فجأة عن الغناء..

فقد التقطت أذناه صوت حفيف خفيف جعله يبتسم بشدة وهو يشد من قامته ويقول:

. أظن أن إفزاعي غير ملائم لهذه الليلة!

لكن الصوت كان قد توقف فدار الشاب بناظريه في المكان لتبدأ دقات قلبه في التسارع فجأة إلا أنه تمالك نفسه وهو يقول:

. حسنا أعترف لقد ارتعبت حقا فتوقفي الآن فلن نضيع الليلة في تلك الألعاب..

لكنه لم يتلق جوابا..

كان الظلام بداخل المستودع حالكا باستثناء بعض الظلال التي يلقيها ضوء القمر المكتمل في السماء عبر فتحات مربعة صغيرة في أعلى الجدران ربما كانت تستخدم للتهوية فيما سبق..

بدا صوت الحفيف قريبا بعض الشيء فاستطاع تحديد موضعه هذه المرة فنظر إلى بقعة ما محاولا تضييق حدقتيه ليرى سبب هذه الحركة لتتهلل أساريره فجأة!

فلم يكن هذا غير فأر متوسط الحجم من تلك المنتشرة في الحقول..

تنهد الشاب ارتياحا فطالما كانت تلك الحيوانات الصغيرة قليلة الضرر ومن المتوقع رؤية إحداها في مثل هذا المكان لالتقاط بعض حبات القمح أو الذرة.

. هششش

ضرب بقدمه أرضا لإفزاع الكائن الصغير مصدر من بين شفتيه ذلك الصوت، لكن العجيب أن الفأر لم يتحرق قيد أنملة وكأنه لا يأبه لهذا العملاق أمامه..

استطاع الشاب أن يلتقط حجرا صغيرا ويلقي به في اتجاه الفأر الذي صار كأنه تمثال تبرق عيناه الدائرتين الصغيرتين في الظلام..

كاد الشاب أن يتجاهل الفأر، لكن صوت حفيف آخر كان يأتيه من الخلف لكن هذه المرة كان الصوت أعلى فالتفت بسرعة ليشعر بقلبه يتوقف عن الخفقان فجأة..

كانت عشرات الأعين الصغيرة تنظر إليه مباشرة فيما يشبه حلقة كاملة، نعم لقد كان الشاب محاصرا داخل حلقة من الفئران!

كان الأمر عجيبا حقا فرغم أن الريفيين معتادون على تواجد هذه الحيوانات من حولهم إلى أن هذا التنظيم وتلك الشجاعة التي تحلى بها جيش الفئران كان مثيرا بالنسبة للشاب ما دفعه للتقدم نحوها لكسر هذا الحصار وهو يركل بحذائه أحدها لكن الفئران في تلك النقطة تحركت بطريقة غريبة في حركة شتات مدروسة لعدة خطوات قبل أن تستعيد وضعيتها وتنقض على قدمه في حين تسلق بعضها جسده متجهة مباشرة إلى عنقه، والشاب يصرخ بهيستريا وهو يحاول

تخليص نفسه من تلك الأنياب الصغيرة التي أخذت تلتهم جسده بشراسة..

لم تمض دقيقتان على الأكثر حتى كانت صرخة نسائية تكسر حاجز السكون في المنطقة عندما دخلت الفتاة التي كان ينتظرها الشاب لتشاهد جثته أرضا وأحشاءه خارجة من بطنه وجيشا من الفئران يلوك جسد عشيقها..

***

فرك الدكتور وليد عينيه المجهدتين قبل أن يعود إلى مجهره مرة أخرى وهو يحرك قطعة صغيرة من بقايا جثة القطة قبل أن يبتعد مجددا وهو يغمغم قائلا:

. مستحيل!

تسمر موضعه لحظات وهو ساهم وقد شحبت ملامحه مما يؤكد بذله لمجهود عظيم فهو لا يفارق مختبره المقام في قبو منزله منذ 24 ساعة كاملة منذ تلك الحادثة..

التقط دفتر تسجيل الملاحظات وخط بضع كلمات قبل أن يدسه في جيب معطفه وينطلق مسرعا وهو ينادي زوجته:

. رغد.. رغد..

كان صوته مزيجا من الفزع والعصبية جعل زوجته الواجمة تقابله على درج السلم متعجبة، ولكنه لم يمهلها لتسأله عن سبب صراخه المفاجئ فقال:

. علينا أن نحزم أمتعتنا بسرعة ومغادرة هذا المكان..

رفعت حاجبيها مندهشة من ذلك القرار المفاجئ والذي لم يمض على رفضه له سوى أقل من يوم كامل! !

. أعلم أنك تتهمينني بالجنون لكن صدقيني من مصلحتنا جميعا التحرك فورا وبدون تردد..

نظرت إلى عينيه مباشرة وقد انتقلت إليها حالة الذعر التي بدت جلية على تقاسيم وجهه وقالت:

. من حقي توضيح لما يحدث هنا والسر وراء هذا التحول المفاجئ!

أمسكها من كتفيها وهو يقول راجيا إياها:

. صدقيني سأخبرك كل شيء ولكن في الطريق..

لم تمض الساعة حتى كانت سيارة وليد الرياضية تنطلق مبتعدة عن الفيلا وبداخلها وليد وزوجته رغد وولديهما الذي استغرق في نوم عميق في المقعد الخلفي..

وما أن انتظمت عجلات السيارة الطريق الممهد خارجة من طريق ترابي طويل حتى نظرت رغد إلى زوجها قائلة:

. هل يمكنني أن أعرف الآن ما يحدث؟!

ضرب وليد عجلة القيادة بعصبية متبعها بنفس عميق قبل أن يقول:

. لقد اكتشفت أشياء خطيرة حول حادث القطة ربما لا يمكنني شرحه الآن لكن صدقيني ما أفعله هو الأفضل لنا الآن..

نظرت إليه بتوتر قبل أن يسود السيارة صمت طويل...

***

مبنى رئاسة الوزراء..

نظر نائب الرئيس في وجوه الحاضرين الذي بدا الوجوم على وجوههم خاصة رئيس المخابرات الذي أطال نائب الرئيس النظر إليه وكأنه يوجه له اتهام مباشر بالتقصير..

ساد صمت مريب لدقيقة أو أكثر والنائب يتفحص وجوه أهم شخصيات الدولة الذين تتكون منهم لجنة الأمن القومي..

. دعونا نبدأ الآن..

قالها النائب قاطعا حالة الصمت، متابعا تلك العيون التي تابعت شفتيه باهتمام فرغم عضوية بعض الوزارات في هذه اللجنة شديدة الحساسية بالإضافة إلى أركان الجيش ورئيس جهاز المخابرات إلا أن أحدا لا يعلم سبب هذا الاجتماع الطارئ وخاصة برئاسة نائب الرئيس وليس الرئيس نفسه كما هي العادة، ربما هم قلة من يعرف السر..

كان من الأمور الأكثر غرابة ذلك اللواء ضخم الجثة بملابسه الرسمية وهيئته الغير معروفة للعديد من الحاضرين، والذي كان بدوره لا يقل دهشة وحيرة من دعوته لهذا الاجتماع عبر اتصال مباشر من رئيس أركان القوات المسلحة بناء على تعليمات رئاسية!

أشار نائب الرئيس إلى اللواء الغامض ذي العوينات الطبية وقال:

. أقدم لكم قائد سلاح الحرب البيولوجية.

هز اللواء رأسه محييا الحضور في حين رمقه رئيس المخابرات بنظرة نارية، فوجود هذا الرجل معناه الوحيد أن نائب الرئيس قد قرر معالجة الأمر بطريقته..

. اعتقدت أن لجنة الأمن القومي محصورة فقط على أعضائها المتعارف عليهم؟

قالها رئيس المخابرات في إشارة واضحة للواء الحرب البيولوجية، إلا أن نائب الرئيس تجاهله تماما ونظر إلى الحضور موجها حديثه إلى الجميع قائلا:

. أعلم أن الفضول سيفتك بأكثركم الآن ولهذا سأدخل في الموضوع مباشرة..

تفحص جميع الوجوه أمامه وقال مستدركا:

. إننا نتعرض لحرب بيولوجية راح ضحيتها السيد الرئيس..

علت همهمات وغمغمات من بين الحضور وهم يتبادلون النظرات القلقة مع تلك القنبلة التي فجرها نائب الرئيس في وجوههم توا، ماعدا رئيس المخابرات الذي ظل هادئا وهو يكسر حالة الفوضى الذي خلفها نبأ مقتل الرئيس قائلا:

. لكن يا سيدي إطلاق كلمة حرب ربما هي شيء مبالغ فيه؟

رمقه النائب بنظرة صارمة وهو يقول:

. انتظر للنهاية يا سيادة اللواء وبعدها يمكنك الجزم إن كنت أبالغ أم اخترت اللفظة الأبسط..

ابتلع اللواء لعابه وصمت وهو ينظر إلى نائب الرئيس الذي أردف قائلا:

. كان الأمر في البداية لا يتخطى احتمالية اغتيال الرئيس بواسطة هجوم حيواني، لكن الأمر سرعان ما تطور فها هو تقرير وزير الزراعة الذي يؤكد تدمير المحاصيل الزراعية ومهاجمة ضارية للبهائم، وإن الوزارة قد تلقت عشرات الشكاوي تفيد عن هجمة شرسة نتعرض لها عبر الفئران..

صمت النائب ليلتقط أنفاسه قبل أن يقول:

. وقد يكون الأمر مجرد ظاهرة تتولاها مكافحة الآفات الزراعية لولا تقرير وزارة الداخلية عن حالات قتل تعرض لها عدد من الأشخاص تؤكد التحريات والتقارير أن الفئران كانت هي الفاعلة أيضا..

كان ما ينطق به نائب الرئيس شيئا مثيرا للدهشة بالنسبة لكل الحاضرين،

. لهذا جمعتكم الآن لمحاولة فهم ما نحن بصدده وكان الأمر ليمر لولا إمكانية وصول هذه القوارض لأكثر الأماكن تأمينا وهو قصر الرئيس، إذن الأمر خطير..

. إننا يا سيدي في الحرب البيولوجية نتعامل مع البكتيريا والجراثيم ولكن موضوع الفئران هذا شيء غريب حقا؟!

. لكنه ليس بالأمر الجديد أيضا فهناك شكوك حول عمليات مخابراتية استخدمت فيها حيوانات شتى..

قالها رئيس المخابرات بطريقة متغطرسة وكأنه أراد أن يثبت عدم جدوى وجود لواء البيولوجي..

. إذن هناك ترابط وثيق بين جميع الجهات الآن أمنية وتتمثل في المخابرات والداخلية وعلمية وستكون مسئولية مشتركة بين الحرب البيولوجية ووزارتي الزراعة والبحث العلمي ولا أريد أن ألفت انتباهكم إلى أن المسألة خطيرة..

***

في الظلام وعبر كشافات سيارة النصف نقل الأمامية اجتاز السائق أسمر البشرة وشاربه الكث منطقة الحقول والسيارة تهتز بشدة، فالطريق ليس ممهدا على الإطلاق..

كان جفناه يقاومان النعاس بشدة وهو يسد فمه المتثائب بيده محاولا منع النوم اللذيذ من التسلل إلى خلايا عقله..

نظر إليه شاب في منتصف العقد الثالث من عمره وهو يجلس بجواره قائلا:

. لقد اقتربنا كثيرا..

رد السائق بفتور:

. أتمنى إنهاء الأمر بسرعة فأنا أحتاج للنوم..

نظر الشاب أمامه وهو يتمنى إنهاء الأمر ربما أسرع من السائق نفسه وهو لا يدري سر إصرار رب عمله على قضاء هذه المهمة ليلا!!

استمرت السيارة في السير رغم تأرجحها المستمر قبل أن ينتبه الشاب فجأة إلى صوت غريب فنظر إلى السائق:

. هل سمعت صوت من صندوق السيارة؟

نظر إليه السائق بعينين نصف مغلقتين وقال:

. لا..

تعجب الشاب من اللامبالاة التي اكتسى بها صوت السائق وعلى مضض حاول الصمت، إلا أن صوتا كان يأتيه من خلفه مباشرة عبارة عن "خرفشة" بسيطة على الزجاج الخلفي فنظر بسرعة لتجحظ عيناه عن أخرهما..

لقد كان أمامه فأران يقفان يتكئان على الزجاج وكأنهما يحاولان كسره..

صرخ الشاب بشدة في السائق قائلا:

. انظر..

كاد السائق والشاب تصطدم رأسيهما بالزجاج الأمامي عندما ضغط السائق بقوة وبشكل مفاجئ على مكابح السيارة، وهو ينظر إلى حيث أشار الشاب ليتحول فزعه فجأة إلى ضحكات ساخرة وهو يرى الجرذين الصغيرين ينظران إليهما عبر الزجاج..

. هل كل هذا بسبب فأرين صغيرين يا لك من رعديد! !!

قال:

. إنها تحاول اختراق الزجاج.

ضحك السائق وقال مازحا:

. ستأكلنا الفئران حقا!

ما إن أكمل جملته حتى ضغط المكابح مرة أخرى وبنفس القوة حتى أن رأس الشاب الذي لم يكن منتبها اصطدمت بتابلوه السيارة فشعر بدوار عنيف..

كان السائق ينظر أمامه مباشرة وعيناه تتسعان بشدة فأمام السيارة وعلى مسافة مترات قليلة كانت الأرض مفروشة بالفرو الرمادي الداكن، جيش كامل من الفئران..

كان الشاب الذي بدأ يستعيد وعيه وكاد أن ينهر السائق قد لمح المشهد مما جعل وجنتيه تتصببان عرقا وبغزارة وجسده كله ينتفض..

كان عشرة من الفئران يقفون على أعجازهم وخلفهم عدد كثيف من الفئران كأنهم جيش نظامي وقادته في المقدمة..

في نفس اللحظة ارتفع صوت النقر على الزجاج الخلفي..

ودون تردد ضغط السائق دواسة الوقود وانطلق مسرعا في اتجاه جيش الفئران الذي علا صريره بشدة وصوت بعض العظام الرقيقة والجماجم تتهشم أسفل الإطارات، إلا أن العدد الأكبر كان قد اتخذ وضعية صفين متقابلين على جانبي الطريق المتعرج تسمح بمرور السيارة..

كان المشهد من أعلى كابينة السائق مثيرا حقا ففي الوقت الذي ظل الجرذان عند الزجاج كان هناك خمسة فئران تتحرك في هدوء ليستطيع أولهما الوصول إلى نافذة السائق المفتوحة..

انتفض السائق من موضعه وهو يشعر بوزن الفأر على ذراعه المتكئة على النافذة وأخذ يهز ذراعه بقوة ليتخلص من الفأر العالق في كم جلبابه للحظات قبل أن يستعيد الفأر توازنه ويتسلقه، وفي هذه الأثناء والشاب بجواره قد ألجمته المفاجأة وفغر فاهه عن آخره كان الفأر الثاني قد عبر النافذة ليلتقط بقارضتيه مؤخرة عنق الشاب..

تأرجحت السيارة التي انحرفت في اتجاه الحقول بسرعة البرق بعدما انشغل سائقها بالتخلص من ذلك الفأر الذي وصل في هذه اللحظة إلى عنق السائق وبفكيه الصغيرين قضم عنقه..

قفزت السيارة عبر كومة من التراب لتتوقف فجأة عاجزة عن عبور السد الترابي ليشاهد الراكبان موجة عارمة من الأجساد السوداء الصغيرة تقترب وتقترب..

شعر الشاب بأحدها يتسلل عبر ملابسه وقوائمه الدقيقة تزغزغ جلده قبل أن تجحظ عينا الشاب هلعا والفأر يقضم جلد بطنه..

لحظات قليلة حتى اختفت السيارة تماما بين مئات الفئران التي اخترقت بدورها جسدي السائق والشاب لتعبث بتلك الأحشاء التي تناثرت في كل مكان ونظرة هلع قد تجمدت على إحدى عيني السائق في حين خرج جرذ صغير من فجوة خلفها موضع العين الثانية..

أما شهقة الشاب الأخيرة فقد خلفت فم مفتوح عن آخره تتابع عدد من الجرذان اجتيازه للوصول إلى الأحشاء الداخلية..

دقائق بشعة قبل أن يأخذ ذلك الجيش في الانحسار رويدا رويدا مخلفا هيكلين عظميين داخل بقايا سيارة..

***

الفصل الثالث

سادت حالة من الهرج بداخل الفندق ذي الأربع نجمات، مع دخول عدد من الرجال ذوي البزات الداكنة والنظارات السوداء يشبهون كثيرا تلك الشخصيات في فيلم رجال يرتدون الأسود!!

انتشر الرجال سريعا بشكل منظم قبل أن يقترب أحدهم وكان أقصرهم قامة كما يبدو أكبر سنا، من موظف الاستقبال ومال عليه بهدوء:

. دكتور وليد عبدالعزيز؟

نظر الموظف إلى محدثه وتلك النظرة الصارمة الموجهة إلى عيني الموظف مباشرة..

دون تردد داعب الأخير لوحة مفاتيح جهاز الكمبيوتر أمامه قبل أن يقول بصوت مبحوح:

. غرفة 707 الـ...

لم ينه الموظف عبارته حتى كان الرجل ذو البزة الداكنة يختفي داخل المصعد..

وفي الطابق السابع كان وليد يجلس بداخل غرفته التي استأجرها مع زوجته وولده بعد مغادرتهما المتعجلة لفيلتهما، كان يجلس في الشرفة المطلة على القاهرة بأثرها وهو يتابع حلقات الدخان المتصاعدة من غليونه، في حين احتضنت رغد زوجته ولدها وبدا

الوجوم على وجهها فهي تشعر بأن زوجها يخفي عليها أمرا جلل خاصة مع هذه القرارات المفاجأة وآخرها واستعدادهما للسفر مرة أخرى! !

رغم أن هذا ما كانت تصبو إليه أصلا إلا أن تمسك زوجها العجيب بالبقاء ثم تغيير رأيه بهذه الطريقة كان ينبئ غريزتها الأنثوية أن في الأمر كارثة!

على الجانب الآخر وفي الشرفة كان عقل وليد يعمل بسرعة محدثا ضجيجا يكاد يشق رأسه إلى نصفين كأن قاطرة بخارية تعمل بكامل طاقتها داخل رأسه فما توصل إليه خلال الساعات الماضية إن صدق فهو ينبئ بخطر لا يمكن تجاهله، إلا أن ما يحيره بشدة كيف آلت الأمور إلى هذا الحد خاصة في مصر؟ فهو يعلم جيدا أن مصر مثلها مثل كل البلدان العربية لا تمتلك الكثير من هذه الأبحاث؟!

قطع صوت طرقات منتظمة على الباب هذا السيل من الأفكار للوهلة الأولى ظن إنها خدمة الغرف إلا أن الطرق بدأ في الإسراع..

أسرع باتجاه الباب وهو يتبادل نظرة سريعة مع زوجته التي عدلت من وضعها النصف راقد..

. الدكتور وليد عبدالعزيز؟

كان الرجل صارم الملامح يقف أمام وليد مباشرة وعيناه تخترقان الغرفة كمن يتفحصها.

. نعم من أنت؟

دفعه الرجل برفق ومر من جانبه دالفا إلى الغرفة بعنجهية غريبة جعلت رغد تقفز من مكانها وهي تنظر إلى زوجها مستفهمة في حين بدا وليد عصبيا وهو يقول:

. من أنت؟ وبأي حق تدخل إلى غرفتي بدون استئذان؟!

نظر إليه الرجل ببرود وهو يدير عينيه في أرجاء المكان ويقول:

. ستعرف كل شيء بعدما ترتدي ملابسك وتصحبنا..

في هذه اللحظة دخل رجلان ضخمان يرتديان بزات متشابهة وفي خصر كل منهما انتفاخ ملحوظ فهمه وليد من فوره لقد كانا مسلحين..

كانت الإشارة شديدة الوضوح ضخمين مسلحين وهو أعزل وخلفه امرأته وطفله!

أشار وليد إلى زوجته قائلا:

. وماذا عنهما؟

قال الرجل مطمئنا:

. لا تقلق هما تحت رعايتنا..

تنهد وليد قبل أن يشرع في ارتداء ملابسه..

لم يستغرق سوى دقائق وكان وليد مستعد لاصطحابهم فنظر إلى زوجته وهز رأسه مطمئنا..

وعند باب الفندق كانت سيارة دفع رباعي سوداء فتح بابها الخلفي رجل ضخم أيضا ليسمح لوليد بالدخول ثم يركب الرجل بجواره..

فوجئ وليد بالرجل يضع كيس قماش أسود على رأسه ليمنع رؤيته للطريق..

الدهشة تعقد لسان وليد فهو يشعر إنه في حلم وحتما سيفيق منه! أو هكذا يتمنى!

***

استغرق حسين مدكور بالنظر في عدسة مجهره لدقيقتين كاملتين قبل أن يرفع رأسه ناظرا إلى الخلف على صوت خطوات تقترب قبل أن يظهر حسني أيوب بجسده البدين..

استقبله حسين بابتسامة مرحبة رغم علامات الإجهاد الجلية على وجهه، إلا أن حسني بادله الابتسامة بذلك العبوس على وجهه وحاجبيه المعقودين بغضب وهو يقول:

. لقد أخبرتك أن الأمر ينذر بكارثة!

نظر إليه حسين متعجبا وقال:

. هل من جديد؟!

كان سؤاله حقيقة الأمر كاذبا فهو يعلم جيدا ما يحدث فما رآه عبر مجهره خلال الساعات الماضية كان يؤكد أن الأمر أكبر كثيرا مما تخيله وما يتخيله حتى ذلك البدين الغاضب أمامه..

. لقد مات سائقي وأحد عمال مزارعي بطريقة بشعة ليلة أمس أثناء تخلصهم من مخلفات المزرعة..

رفع حسين حاجبيه في دهشة مصطنعة:

. وما علاقتنا بذلك؟!

ارتفعت نبرة صوت حسني غاضبا:

. أنهم هم من فعلوها!

رفع حسين مدكور حاجبيه مندهشا، فرغم أنه كان يعلم جيدا أن الأمور ستؤول إلى الأسوأ لكنه لم يتخيل أن تكون بهذه السرعة!

ساد الصمت لحظات قبل أن يقول حسني:

. اسمع جيدا دكتور حسين أنا سأوقف هذا المشروع ومنذ هذه اللحظة لن تنال مني جنيها واحدا لأبحاثك..

ضحك حسين قائلا:

. هل تظن نفسك هيرودوس فتغسل كفيك؟! الأمر لن يتوقف بهذه الطريقة بل كما بدأ بالعلم لن ينتهي سوى به، أنت شريك شئت أم أبيت..

قال حسني مندهشا:

. أنا لست شريكا لأحد، أنت تعرف الاتفاق وليس ذنبي أن كنت وثقت في عالم جاهل أو مجنون تسبب في تلك الكارثة، ولهذا قراري نهائي.

هز حسين رأسه كأنه يوافقه وقال بهدوء:

. حسنا، كما تشاء ولكن عليك أن ترى شيئا قبل أن تغادر، وبعدها أنت صاحب قرارك..

تعجب حسني من تلك النبرة الهادئة كما أنها المرة الأولى التي يعرض فيها أن يريه شيئا يتعلق بأبحاثه رغم تعاونهم منذ أكثر من سنة كاملة، والأدهى أي شيء قد يقنعه بالعدول عن رأيه؟!

تحرك حسين مدكور وخلفه حسني الذي أخذ يتطلع في عدد من الصناديق والأقفاص احتوت أنواعا شتى من الحيوانات كذلك هذا الكم من الأنابيب الزجاجية التي اكتظ بها المختبر..

اقترب حسين من باب زجاجي سميك وبجواره ضغط على مربع مضيء بسبابته ليفتح الباب من فوره بعد التعرف على بصمته..

كانت الغرفة باردة نوعا ما عن الخارج مطلية كلها باللون الأبيض تتوسطها طاولة طويلة وضع عليها جهازين حاسب آلي وعددا من تلك

الآنية الزجاجية تحتوي سوائل متعددة الألوان وفي نهاية الطاولة صندوق زجاجي ضد الكسر، توقف عنده حسين وأشار لـ حسني أن ينظر بداخله..

اقترب الأخير من الصندوق لتجحظ عيناه بشدة وهو يرى ما بداخله وفكه السفلي يسقط على صدره..

***

مرت الساعة تقريبا قبل أن يشعر وليد بالسيارة تتوقف والرجل بجانبه يدفعه للنزول..

أخذه الرجل من تحت إبطه يقوده عبر عدد من الممرات لم يسمع وليد الذي أرهف السمع خلالها سوى صوت أحذيتهم مما أعلمه أن خلفه مجموعة من الرجال وأمامه رجل واحد..

دقائق قليلة قبل أن يوقفه الرجل الذي يقوده وصوت مزلاج حديدي يفتح ليعود الرجل للسير دافعا بوليد وفجأة أضاءت الدنيا حتى إن وليد أغمض عينيه لبرهة محاولا استيعاب الضوء المفاجئ الذي خلفه نزع كيس القماش الأسود، ليجد نفسه بغرفة مربعة شبه خالية سوى من مقعد حديدي جاف، ويقف أمامه مباشرة نفس الرجل الذي حدثه في غرفة الفندق..

أدار وليد بصره في تلك الغرفة الخاوية ثم نظر إلى الرجل قائلا بصوت مبحوح:

. هل يمكن أن أعلم أين أنا؟ وما سبب وجودي هنا تحديدا؟

ابتسم الرجل وقال:

. ستعرف كل شيء قريبا فقط عليك الجلوس والاسترخاء..

أنهى الرجل عبارته وهو يشير إلى المقعد الحديدي..

كان التوتر وتلك القشعريرة التي أصابت جسد وليد قد جعلت قدميه لا تحملانه فألقى بجسده على المقعد اليابس وعقله يحاول أن يعي ما يحدث حوله..

مرت خمس دقائق كاملة قبل أن يصدر الباب المعدني صريره من جديد ويدخل رجلا في منتصف الأربعينيات من عمره يرتدي بزة عسكرية وخلفه أحد الرجال ذو البزات الداكنة يحمل مقعدين جلديين..

جلس الرجلان الواقفان بمواجهة وليد الذي تصببت وجنتاه عرقا خاصة وهو يرى تلك الرتب والنياشين على ثياب الرجل العسكري..

قال الرجل المدني:

. أعتقد أنك ما زلت تتساءل عن سبب وجودك هنا؟

هز وليد رأسه موافقا في حين قال الرجل مردفا:

. أولا أنت في مكان عسكري شديد السرية..

رفع وليد حاجبيه بدهشة فيبدو أن الأمور تزداد سوءا بحق ولكن ما يقلقه أكثر في هذه اللحظة رغم غرابة الوضع برمته هو موقف زوجته وابنه ولهذا سأل بسرعة:

. ماذا عن أسرتي؟

ابتسم الرجل في الثياب المدنية وقال مطمئنا:

. هم تحت حمايتنا..

ثم صمت برهة قبل أن يقول مستدرجا:

. وبقليل من التعاون منك يمكن أن تلحق بهما وبطائرتك..

كان الأمر مذهلا حقا فيبدو أنهم جمعوا عنه معلومات أكثر مما يجب فحتى زوجته لم تكن تعرف أنه حجز طائرة بعد أسبوع عائدا بهما إلى أمريكا..

. وما المطلوب مني تحديدا؟!

اعتدل الرجل ذو الزي العسكري وقال:

. تخبرنا سبب وجودك في مصر؟

ضم وليد حاجبيه بشدة وقال غاضبا:

. كل هذه الضجة لتسألني لماذا عدت إلى وطني؟

قال الرجل المدني بصرامة:

. إذا كانت عودتك تمس بأمن البلاد فيجب أن نسأل!

. سيدي لا أعرف عما تتحدث تحديدا وأعتقد أن لديكم معلومات كافية عني وعن أسباب عودتي..

. نحن نريد السبب الآخر الذي لا يعرفه أحد..

قالها الرجل المدني وهو يغمز بعينيه متخابثا..

. ما رأيك سيدي أن تكون أكثر وضوحا فأنا لا أعلم عما تتحدث؟!

أنهى وليد جملته في حين تنهد الرجل المدني قائلا بفراغ صبر:

. من كلفك بمهمة الفئران؟

فغر وليد فاه عند سماعه الكلمة الأخيرة..

. فئران!!

شعر رجل المخابرات أنه ضرب على الوتر الصحيح فتبادل النظر مع العسكري الذي ظلت ملامحه جامدة كأنها نحتت من الجرانيت..

. أعتقد لأنك تعرف عما أتحدث الآن؟

هز وليد رأسه كأنه ينفض فكرة مريعة عن رأسه وقال وهو يضحك ساخرا:

. بل لقد ازداد غموضا!

في هذه اللحظة تدخل الرجل العسكري قائلا بصوته الخشن:

. اسمع سيد وليد ليس لدينا وقت يسمح بالمراوغة هنا لقد زرنا مختبرك ورجالك اكتشفوا آثار الفئران على أشلاء القطة التي كانت أسفل المجهر أيضا فأعتقد أن الأمر منتهي؟

استدرج رجل المخابرات مكملا لزميله:

. كل الأصابع تشير إليك وكذلك الأدلة مما قد يدفع بك لبقية عمرك خلف القضبان في محاكمة سريعة ونحن الآن نطلب مساعدتك كي نستطيع أن نساعدك..

اتسعت حدقتا وليد بشدة وهو يسمع ذلك الاتهام المباشر مما جعله يشعر بدوار مفاجئ وهو يقول:

. أنتم تمزحون حتما؟! رجاء أخبروني؟

نهض رجل المخابرات من مقعده واقترب من وليد بعصبية قائلا:

. اسمعني جيدا نحن لا نمزح خاصة فيما يتعلق بحالات القتل وخاصة إذا كانت قتل الرئيس نفسه..

ارتجف وليد بشدة ربما ليس فقط من نبرة الرجل الثائرة بقدر تلك الجملة الأخيرة، هنا لأول مرة تلتحم الخيوط في رأس وليد إن الفئران التي قتلت قطة طفله قد وصلت بطريقة أو بأخرى لتفتك بالرئيس

نفسه! لكن لماذا الشك في شخصه هو بالذات وإن كانوا يعتبرون أشلاء قطته دليلا فلماذا دخلوا مختبره من الأصل؟!

هو اكتشف فعلا خطورة الموقف ولهذا كان قراره بالسفر لكنه لم يتخيل أبدا أن يصل الأمر لأكثر شخص يخضع للحماية كما أن حساباته يبدو أنها خاطئة فمهاجمة البشر لم تكن ضمن حساباته مطلقا على الأقل في هذه المرحلة..

. هل بدأوا الهجوم على بشر آخرين؟

سألها وليد مستفسرا، في حين تبادل الرجلان النظر قبل أن يقول العسكري:

. بل هجوم شرس..

تنفس وليد بعمق وقال:

. حسنا سأروي لكم كل شيء من البداية..

انتبه الرجلان بشدة وعيناهما تتسعان رويدا رويدا وهما يصغيان إلى الرجل الذي أذهلهما بحديثه..

***

في المختبر الآمن لـ حسين مدكور كان حسني الجهيني ما زال ينظر إلى داخل الصندوق الزجاجي حائرا مما يراه كان داخل الصندوق فأر رمادي اللون كل هذا لم يكن بالأمر الغريب فصناديق حسين مليئة بالفئران متعددة الأنواع، إلا أن هذا الفأر كان ضخم بحق فأنه يتجاوز حجم جرو متوسط الحجم أو بحجم أرنب عملاق!!

الأكثر غرابة هي تلك النظرة التي تملأ عينيه فهو ينظر مباشرة إلى عيني حسني حتى أن الأخير أوجل من تلك النظرة فهز رأسه ليهز الفأر رأسه بطريقة مشابهة..

أشار حسين بأصبعه إلى نقطة بعينها فإذا الفأر يتحرك ويحفر في أرضية الصندوق المغطاة ببعض الرمال ويخرج عظمة كبيرة وينظر إلى حسين كأنه ينتظر أوامره..

قال حسني:

. ما هذا؟

قال حسين بزهو:

. بقايا جرو صغير ارتجف حسني بشدة وقال:

. هل افترس كلب؟

أومأ حسين برأسه موافقا وقال:

. ليس هذا ما يهم بل انظر إلى معطيات ذكائه المبهرة!

. أنت تخلق وحشا هنا؟

. بل علاج للضعف الإنساني وها هي مؤشراته أمامك قوة بدنية وذكاء خارق..

. وماذا تنتوي أن تفعل؟

هز حسين رأسه بلا مبالاة وقال وهو يلتقط شيئا من فوق الطاولة

. يجب أن أجربه على البشر..

لم يستطع حسني الإجابة وهو يشعر بوخزة خفيفة في عنقه بعدما غرس حسين أبرته وأفرغ محتواها بسرعة ليشعر الأول بخدر يسري بجسده قبل أن يسقط فاقدا الوعي...

***

الفصل الرابع

. يا سيد وليد يجب أن تعلم مبدئيا مع من تتحدث فربما هناك لبس لديك في الأمور فأنا العميد صلاح المنشاوي من المخابرات وزميلي العقيد طه السرجاوي من سلاح الحرب البيولوجية أي أنه رجل علم بالإضافة إلى أنه عسكري ومع ذلك تريد أن تقنعنا بأن الفئران هاجمت قطة ابنك وأنك اكتشفت بقايا علف حيواني موضع أسنان تلك الفئران أنها لسخرية فجة منك يا دكتور وليد..

قالها العميد صلاح ذو البزة المدنية بفجاجة وهو لا يصدق حرفا مما قاله وليد الذي نظر إلى العقيد طه الذي يبدو أنه أكثر تعقلا من زميله وهو يقول:

. سيد وليد إن الأعلاف الحيوانية موجودة في كل مكان في مصر ومنذ زمن فما الجديد حتى تتحول الفئران إلى هذه الوحوش؟

. سأعيد عليكم ما اكتشفته إن نوعية الأعلاف الموجودة هنا تحتوي على هرمون معين اسمه العلمي هو "التستستيرون" وأجريت أبحاث سابقة تؤكد أن زيادة هذا الهرمون تحديدا تسبب ارتفاع ميل الكائن للعنف..

قال العقيد طه:

. لكن نسبة العنف هنا مرتفعة جدا كما أنها منظمة ألا توافقني الرأي إن تحليلك به العديد من الثغرات؟

كان العميد صلاح يتابع تعبيرات وجه وليد محاولا معرفة أن كان صادقا أو كاذبا، وذلك رغم إيمانه التام أن تلك الطريقة قد لا تجدي نفعا لو كان أمام عميل محترف ويبدو أنه الآن في مرحلة مخابراتية معروفة تسمى الاعتراف البديل ويتم خلالها تلقين العميل قصة مقنعة تحتوي على أدلة منطقية بحيث تصرف الخصم عن الهدف الحقيقي لمهمة العميل..

أجاب وليد:

. هذه دراسات مثبتة علميا وأن لم يتم تسجيل هذا القدر من العنف فلا يعني استحالة وجوده و..

قاطعه صوت هاتف العميد صلاح الذي نظر إلى رقم المتصل فضغط زر الإجابة بسرعة

. العميد صلاح..

. .....

كانت ملامحه تدل على أهمية الحديث الذي يتلقاه فوجهه يزداد احتقانا وبعض نظرات خاطفة لوجه وليد الذي ابتلع لعابه بصعوبة فهو لا يعلم أي كارثة جديدة ستحل على أم رأسه بعد هذه المكالمة..

استغرق العميد خمس دقائق كاملة وهو يستمع لمحدثه دون أن ينبس ببنت شفة حتى ضغط فجأة زر الغلق ونظر إلى وليد للحظة ثم أشار إلى العقيد ليتبعه إلى ركن الغرفة بعيدا عن وليد فمال على أذنه وأسر له شيئا ما بعدها نظر العميد إلى وليد قائلا:

. سنكمل حديثنا بعد قليل..

أنهى عبارته وخرج مع زميله تاركا وليد وحيدا في غرفة احتجازه..

وبالخارج وعلى مسافة عدة حجرات من مكان الاحتجاز دلف الرجلان إلى غرفة كانت تختلف تماما حيث احتوت على مكتب خشبي كبير وعلى اليسار طاولة اجتماعات متوسطة الحجم جلس على رأسها رئيس المخابرات..

جلس كل من العقيد والعميد على جانبي الطاولة فشرع الرئيس في الحديث مباشرة:

. يبدو يا سادة أن رجلكم ليس هو المنشود..

تبادل الرجلان النظرات بدهشة في حين قال عميد صلاح:

. لكن يا سيدي كل المؤشرات تؤكد أنه هو المنشود!

هز الرئيس رأسه موافقة وقال:

. حقيقة الأمر أنني كنت الداعم الرئيسي لاتهامه حتى نصف ساعة، في البداية كانت الشبهة جنائية صرفة خاصة إذا كان رئيس البلاد ضحيتها الأولى، لكن الأمر اختلف مع المعطيات الجديدة فرغم مصادفة تواجد رجل توافرت كل الشكوك فيه ضمن حيز جغرافي شهد العديد من الحوادث كما أن تخصصه العلمي يشير إلى ضلوعه كذلك وتناسب توقيت وصوله إلى مصر مع حادث الرئيس، كلها أمور تشير وبقوة أنه خلف العملية..

. وما الذي قلب الموازين سيدي؟!

قالها العميد صلاح متعجبا من التغير المفاجئ لوجهة نظر رئيسه الذي اعتدل قبل أن يقول:

. نحن لسنا رجال علم ولكن مهمتنا أمنية بحتة، ولكن ظروف عملنا تجعلنا نتعاون كثيرا مع العلماء ويجب أن تتوافر لدينا معلومات متخصصة تساند عملنا، وهذه القضية من تلك التي تعد علمية

صرفة حتى وأن احتوت في ظاهرها على أدلة جنائية، لهذا تم دعمنا بمتخصصين مثل سيادة العقيد..

وأشار للعقيد طه قبل أن يقول مستدرجا:

. ولأن القضية تخص حيوانات فتم إشراك جهة مدنية ممثلة لوزارة الزراعة ألا وهي مصلحة الطب البيطري والتي أعطتنا أدلة براءة وليد، فبالأمس وقع حادث مروع بالقرب من نفس المربع الجغرافي وهو قريب بدوره لنقطة مركزية لمحطة رفع الصرف الصحي المسئول عن المنطقة التي يقع فيها قصر الرئيس، هذا الحادث خلف بعضا لجثث الفئران التي هاجمت شاحنة محملة بمخلفات إحدى المزارع الحيوانية الكبيرة، ولقد قام مسئولو الطب البيطري بتحليل هذه العينات والتي أثبتت أن الفئران كانت تهدف الاستيلاء على تلك المخلفات التي بدورها تحتوي على بقايا أعلاف مصنعة من مواد خطيرة، كما أثبت الفحص لعينة الفئران أن إحدى هذه المواد قد تشبعت بها أجسادها وعمرها يعود لأكثر من سنة كاملة أي قبل وجود وليد بالبلاد...

صمت الرئيس قليلا ليلتقط أنفاسه ليعود مردفا:

. وبالعودة للمزارعين تبين عدة حوادث تتعلق بمهاجمة ماشيتهم بواسطة الفئران أيضا بعضها تم تسجيله في محاضر رسمية والبعض الآخر لم يتم الإبلاغ به..

قال العقيد طه:

. إذن نحن أمام مشكلة أكبر فمن الظاهر عدم وجود بكتيريا أو جراثيم أو فيروسات وبهذا يخرج عن نطاق عمل الحرب البيولوجية..

هز الرئيس رأسه موافقا وهو يرد قائلا:

. بل هي خارج كل نطاق إمكاناتنا المتاحة في الحقيقة، فرجال الطب البيطري لم يستطيعوا معرفة السبب وراء هذه الهجمة!!

هنا تدخل العميد صلاح قائلا:

. لكن ما زال لدينا الشخص الوحيد القادر على حل تلك المعضلة..

نظرا إليه وهو يستدرج قائلا:

. إذا كان وليد حقا ليس مسئولا عما يحدث لكنه مؤهل لأن يكشف لنا الكثير خاصة أنه في التحقيق ذكر أنه استطاع التوصل إلى بعض النتائج في وقت قياسي..

مط الرئيس شفتيه وهو يفكر مليا قبل أن يقول:

. رغم صعوبة الاستعانة بشخص من خارج الجهات الرسمية لكن أعتقد أن الأمر يستحق المجازفة وعليكما إقناعه بتقديم يد العون، ولندعوا الله أن نستطيع إيقاف الأمر عند هذا الحد..

قالها وعقله يستعيد كل تقارير الحوادث التي تسببت فيها الفئران وهو يشعر بقبضة باردة تعتصر قلبه الذي يؤكد له أنهم أمام أمر خطير.. بل أخطر مما يتخيل..

***

وقف الرجل الضخم الجثة ببزته الداكنة وسماعة دقيقة ذات سلك أبيض رفيع متصلة بأذنه أمام باب غرفة وليد بالفندق..

كانت مهمته واضحة حماية رغد وطفلها ومنعهم من المغادرة تحت أي ظرف..

كان طوله يتخطى المائة والتسعين سم مفتول العضلات قصير الشعر..

كأنه باب وضع أمام الباب!

بالداخل كاد القلق يعصف برغد التي تنظر كل فينة وأخرى إلى طفلها الذي استغرق باللعب بدميته المقربة..

كان كل شيء ضبابيا بالنسبة لها بدءا من حادث القطة ثم قرار وليد المفاجئ بالمغادرة الذي لا تعلم حقا إذا كان موافقا لرغبتها أم كان الأمر مجرد ضغط منها للفت انتباهه إليها؟ بعد انشغاله الدائم بأبحاثه وغيابه لساعات داخل مختبره؟!

استفاقت من ذلك التفكير العميق على صوت خطوات طفلها الذي اتجه إلى الحمام بهدوء تاركا دميته على السرير..

كانت نظرتها إليه نظرة قلق وخوف فهي لا تعلم أين زوجها؟ ولا ماذا ستؤول إليه الأمور وإذا حدث أي مكروه لزوجها ما قد تعانيه مع ولدها خاصة أن لا أحدا لها هنا سوى وليد فوالدتها متوفاة ووالدها ما زال بأمريكا وهي ابنة وحيدة له وقد تركته من أجل وليد العالم الوسيم الذي سرعان ما تحول إلى عالم نهم بالكاد يفارق مختبره في العمل ليستمر بمختبره المنزلي الخاص..

. ماما.. آه

اقتلعها صراخ الطفل من موضعها لتندفع إلى الحمام فتجد الطفل متصلبا وهو ينظر إلى ركن الحمام..

لفت ذراعها حوله مطمئنة لكنه أشار إلى تلك النقطة فتجحظ عيناها بشدة..

لقد كانت مصفاة البلوعة تتحرك بعنف كأن شيئا ما يدفعها من أسفل بقوة.. اقتربت من البلوعة بحذر محاولة اختراق تلك الثقوب الدقيقة ببصرها لترى ماذا يحدث وعلى بعد خطوتين شعرت بقلبها

يتوقف عن الخفقان عندما اندفع الغطاء المعدني كأنه رصاصة من فوهة مسدس بالكاد مالت برأسها ليصطدم بالجدار خلفها على بعد سنتيمترات..

لكن ما روعها كانت هاتان العينان الدائريتان اللتان ينظران لها وبأسفلهما أنف دقيق يتحرك هو وشوارب الفأر الطويلة..

خرج الجزذ بهدوء وخلفه تدافعت أعداد كبيرة برزت قواطعها بشكل مقزز مع فروتها المبللة من مياه المجارير..

تراجعت رغد خطوتين إلى الخلف لتضع طفلها في ظهرها والذي التصق بوالدته وشعرت بجسده الصغير ينتفض بشدة..

كانت الفئران تتخذ شكلا منتظما خلف الفأر الأول وكأنه رئيسهم قبل أن يتحرك الفأر حركة متقطعة في اتجاهها وهو يحرك رأسه بعصبية ويصدر صرير خافت كأنه يقول شيئا ما..

تراجعت رغد أكثر وأكثر والعرق يغطي جبهتها عن آخره، والفأر يتقدم نحوها، وفجأة قفز الفأر عاليا كدانة مدفع متجها مباشرة إلى وجهها، صرخة رغد بشدة وهي تعود إلى الخلف وخلفها ابنها الصغير الذي انهمر في بكاء مرير وجسده كله يرتعد بشدة..

استطاعت رغد كردة فعل طبيعية التقاط الفأر في الهواء بكلتا راحتيها لتلقي بجسده المبلل باشمئزاز بعيدا إلا أن جيش الفئران تحرك مسرعا في اتجاهها بعضهم زحفا وبعضهم متسلقا جدران الحمام وكأنهم يضربون عليها حصار..

تراجعت إلى باب الحمام وكادت أن تمسك به لتهرع إلى الخارج إلا أن جسما مرنا سقط على رأسها مباشرة وشعرت بتلك المخالب الصغيرة تنشب في فروة رأسها، تعالت صرخاتها بشدة ولكن صرخة

الطفل كانت أشد، كانت تمسك بالفأر على رأسها تحاول اقتلاع مخالبه من فروة رأسها وهي تنظر إلى ولدها الذي رسمت الفئران حوله دائرة أخذت تضيق وتضيق و..

شعرت رغد بأزيز قوي في أذنها حتى إنها ظنت إنها فقدت حاسة السمع تماما. في حين تطايرت أشلاء بعض الفئران التي كانت ترسم حلقة حول الطفل..

رفعت رغد رأسها لتجد الحارس ذا البزة الداكنة عند باب الغرفة يشهر مسدسه الذي تصاعدت منه الأدخنة ويطلق عدة رصاصات على الفئران التي تراجعت بشكل بدا عشوائيا و..

صدر ذلك الصوت المعدني المقيت.. نفدت ذخيرة الرجل..

كانت رغد قد استطاعت التخلص من الفأر المتعلق برأسها واحتضنت ولدها وحملته وهي تتجه إلى باب الغرفة و..

تجمدت في موضعها فجأة، فالفئران قد اتخذت شكل القوس كما يبدو أنه وضع تكتيكي للهجوم، لكن هذه المرة كانت تتجه إلى الرجل الذي هاله ذلك المشهد فقال صارخا:

. هيا..

كانت كلمته كفيلة باقتلاع رغد من موضعها وهي تركل أحد الفئران كان في طريقها في حين تطايرت عشرات الفئران التي كانت تركلها قدم الرجل مبعدا إياها وهي تحاول تسلق جسده،

إلا أن أحدها نجح في القفز والتشبث بملابس رغد من الظهر فصرخت هلعا إلا أن الرجل أحكم قبضته على ذيل الفأر الذي أصدر صريرا مريعا وهو يطير في الهواء قبل أن يصطدم بالجدار ثم يسقط جثة هامدة مخلفا بقعة من الدم..

نجحوا أخيرا في الخروج من الغرفة جذب الرجل الباب خلفه بعنف وصوت مخالب الفئران على الخشب من الداخل و....

كان المشهد بالخارج جنوني بحق ففي الممر الطويل كان مشهدا عجيبا جعل رغد والرجل يتجمدان مكانهما وعيونهما تجحظ بشدة..

لقد كان العشرات من رواد الفندق يهرعون كأنما تطاردهم شياطين الجحيم بعضهم بثياب النون وبعضهم بدون ثياب أصلا والكل يصرخ وخلفهم جحافل من الفئران..

ولكن ذلك المشهد في نهاية الممر كان الأكثر بشاعة وجنونا بكل ما تحمل الكلمة من معنى، مما جعل رغد تغطي وجه ابنها بيديها!

لقد كان رجلا عاريا تماما مسجى أرضا وعيناه جاحظتين عن آخرهما وهو يمد يده كأنما يستغيث برغد والحارس ولكن الأغرب كان يخرج من منطقة البطن فأر مخضب بالدماء وهو يمسك بقاطعتيه شيء يشبه الخرطوم ويسحبه إلى الخارج.. عرفت رغد من فورها أنها أمعاء الرجل..

شعرت الأخيرة أن الأرض تميد بها بشدة وتكاد تسقط مع طفلها المدفون في صدرها لولا قبضة الحارس الذي اعتصرت يدها ليسحبها خارج الفندق الذي سرعان ما تحول إلى مبنى مهجور..

وفي الشارع كان الأمر أكثر جنونا فالذين فروا من الفندق بهيئاتهم الغريبة قد أثاروا الفزع بين المارة فأصبحت لا ترى سوى نساء ورجالا وشبابا يهرعون في كل مكان وكأن القيامة قد قامت حالا وبين كل هذه الفوضى جثة أو جثتين تجمع عليهم عدد من الفئران التي انتشرت في كل مكان في الشارع وعلى واجهات المباني..

وقف الحارس مذهولا مما يحدث وعقله يعمل بسرعة عاصفة كيف يتصرف وسط هذا الجنون فتعليماته واضحة حماية رغد والطفل والإبقاء عليهما مكانهما، حتى بعدما خالف التعليمات كانت هناك مشكلة فالشارع ليس أكثر أمنا من الفندق وهو لا يمتلك سيارة أيضا؟

وكأن رغد قرأت ما يدور برأسه فأشارت على الجانب الآخر من الطريق هاتفة:

. السيارة.. هناك.

لم يفكر الرجل وهو يجذبها متجها إلى سيارة وليد ودون أن يسأل عن المفاتيح حتى، كانت قبضته تخترق الزجاج ليرفع قفل الباب ويفتحه غير عابئا بالنزيف بين أصابعه بعد اختراق الزجاج لقبضته ودفع بجسده ناحية الباب المقابل ليفتحه لرغد التي انطلقت مسرعة تجاه الباب تدفع بابنها وهي خلفه وتنظر إلى الرجل وأنها تحثه على الإسراع لكن الكلمات توقفت في حلقها وهي تنظر إلى النافذة ذي الزجاج المكسور في الوقت الذي كان الرجل فيه ينتزع بعض الأسلاك ليصلها ببعضها منحنيا بذلك أسفل المقود، لتصرخ رغد فجأة ومن صرختها اصطدمت رأسه بالمقود وهنا قفز فأر أكبر حجما من الذين هاجموها بالغرفة ودون تردد ينشب قواطعه في عنق الرجل من الخلف..

وبمحاولة يائسة حاول الرجل الذي بدأ في النزف انتزاع الفأر الذي أحكم أسنانه في جلد عنقه، رغم كل الألم الذي سببه اقتطاع جزء من لحم عنقه إلا أنه نجح في إلقاء الفأر خارج السيارة والدماء تنهمر أكثر وأكثر وفي هذه اللحظة هدر محرك السيارة لتنطلق بشكل متعرج متفادية الجموع الهاربة في الشوارع..

تنهدت رغد بارتياح بعض الشيء والسيارة تنطلق وعجلاتها تطحن بين فينة وأخرى عددا من الفئران، لكن هذا الارتياح لم يدم كثيرا عندما أشارت في أحد الاتجاهات، وهي تصرخ قائلة:

. انظر هناك؟

صرير المكابح كان قويا جدا والسيارة تنحرف لتدر حول نفسها بشكل خطير جدا، فالحارس لم يستطع التماسك وهو يرى ذلك المشهد المريع..

***

. سيدي يجب أن تشاهدوا هذا؟

كان الضابط الشاب يلهث بشدة وهو يقول جملته بعدما اقتحم الغرفة على رئيس المخابرات ومعه العميد صلاح والعقيد طه دون استئذان، إلا أن وجه الشاب المتجهم وأنفاسه المتلاحقة جعلتهم يقفزون من مقاعدهم بسرعة متجهين إلى الطابق الأرضي وعبر ممر طويل وصلوا إلى حجرة كانت كبيرة المساحة انتشر فيها عدد كبير من الحواسيب لكن الجميع كانوا يقفون أمام شاشة عملاقة في منتصف الغرفة، وما أن دخل الرئيس وصحبته حتى أفسح العاملون الطريق لهم وملامح وجهه تتقلص بشدة هو وصاحباه وهم يرون بثا مباشرا لأحد شوارع القاهرة وتلك الحالة الجنونية التي يشهدها..

. الأمر لا يقتصر على هذه النقطة يا سيدي فقط فاستطعت عبر بعض كاميرات المرور الولوج إلى شوارع أخرى فيبدو أن الحالة عامة في كل شوارع العاصمة..

ومع حديث الشاب كان يداعب بعض مفاتيح حاسوبه لتحل صورة أخرى لشارع آخر باللونين الأبيض والأسود ولم يكن الحال أفضل مما سبق..

أخذ الشاب يتنقل بين مشاهد حية وحالة الفوضى تعم البلاد..

نظر الرئيس إلى الشاب قائلا:

. هل هناك معلومات عن باقي المدن؟

أشار الشاب نافيا وهو يقول:

. ليس لدينا معلومات حتى الآن.

. حسنًا استمروا بالمراقبة والتأكد من وضع المدن الأخرى..

قالها الرئيس وهو يستدير إلى الرجلين بصحبته ويشير إليهما بأن يكملا مهمتهما..

وما هي سوى لحظات حتى كانا في طريقهما إلى غرفة احتجاز وليد.

كان الأخير ما زال جالسا على مقعده الحديدي عندما أصدر الباب الثقيل صريره المزعج ليظهر أمامه العميد صلاح وخلفه العقيد طه ليقترب منه الأول وهو يتنحنح كأن الكلمات تعاني الخروج من حلقه وهو يقول:

. أستاذ وليد نأسف على إزعاجك وهذه الطريقة الغير لائقة التي استخدمناها معك ولكن يجب أن تلتمس لنا العذر فنحن أمام كارثة محققة..

هز وليد رأسه متفهما وقال:

. لا بأس، ولكن هل يمكنني الانصراف الآن؟

قال طه في حرج واضح:

. لا في الحقيقة فنحن نحتاجك معنا.

نظر إليه وليد مندهشا في حين أردف طه قائلا:

. لقد خرج الأمر عن السيطرة ونحن نحتاج خبراتك العلمية من أجل سلامة البلاد والأرواح.

. لا أفهم ماذا تقصد يا سيدي؟

تنهد العميد صلاح وقال:

. الفئران تهاجم الجميع.

جحظت عينا وليد بشدة وهو يحاول هضم الجملة الأخيرة، قبل أن يصرخ فجأة:

. رغد والطفل أين هما؟! هل هما بخير؟

تبادل طه وصلاح النظر قبل أن يقول الأخير:

. إنهم تحت حراسة رجالنا فلا داعي للقلق.

شيء غريب جعل وليد لا يشعر بالطمأنينة..شعور دفين ينبئه أن عائلته تعاني الآن..

حاول أن يُطمئن نفسه وهو لا يعلم حقيقة أن هذا الشعور بالقلق كان في محله تماما..

ففي هذه اللحظة تحديدا كان يحدث شيء مروع بحق..

***

. هل تعرف ما مشكلتي الدائمة؟؟

قالها حسين مدكور وهو ينظر إلى حسني المُكبل إلى مقعده وبقايا شعره القليل مبعثرة بشكل يثير السخرية وعيناه شبه الزائغتين، في حين استدرج الأول قائلًا:

. الغباء.. الغباء يا عزيزي هو المشكلة الكبرى التي أعاني منها.. الجامعة أغبياء ومركز البحوث أغبياء حتى رجال الأعمال أمثالك أغبياء.. كلهم يُنكرون حقنا كعلماء أن نحكم هذا العالم..

أطلق حسين ضحكة هيستيرية عالية وهو ينظر إلى الرجل المكبل الذي يتابع بنظرات خاوية ذلك العرض الجنوني وحسين يستمر في استعراض فلسفته بطريقة مسرحية قائلًا وهو يميل بوجهه إلى وجه حسني:

. لقد خُدعت فيك يا صديقي فقد ظننتك مختلفا عنهم ولكنك أيضا كنت غبيا ولهذا قررت أن استبدل الجميع..

نظر حسني إليه مندهشا رغم نظراته الزائغة في حين أردف الأول قائلًا:

. لا تندهش كثيرًا لكنك ستصبح الأذكى عما قريب فالأذكياء فقط سيرثون الأرض..

تحرك حسين بطريقته المسرحية مُفسحا مجالا لتظهر خلفه شاشة تلفاز كانت تعرض في هذه اللحظة لقطات حية للأحداث التي تمر بها البلاد وقد تناقلتها وكالات الأنباء وهو يضحك ويضحك ويقول:

. هذه فئراني تُخضع الجميع لقد أصبحت ذكية وقادرة الآن..

التفت حسين يمينا ويسارا كأنه يتأكد أن أحدًا لا يستمع إليه رغم الحجرة المغلقة قبل أن يقترب من أذن حسني الذي ظل جامدا ويقول:

. لا أخفيك سرًا إن الأمر كان مجرد مصادفة في البداية ولكن يبدو أن الأقدار كانت تبعث إلي برسالة ما وقد التقطتها ولا أنكر أنك قمت بدور كبير ولهذا ستنضم للصفوة..

انطلقت ضحكة جديدة من بين شفاه حسين وهو يَدفع بمحقن إلى وريد حسني الذي ارتسمت علامات الذعر على وجهه وتلك الملامح المتصلبة ترتسم على قسماته وهو يشعر بالسائل المجهول يمر عبر أوردته مخلفا كما كبيرا من الألم..

ربط حسين على كتفه قائلًا:

. صدقني ستشكرني يوما ما على هذا والآن حان وقت العرض . show time . الذي لن تنساه أبدا.

اتجه حسين إلى باب الحجرة وغاب لدقيقة تقريبا قبل أن يعود دافعا بشيء أمامه ما أن رآه حسني حتى جحظت عيناه وانتفض بشدة..

***

الفصل الخامس

بصعوبة بالغة استطاع الرجل الضخم التحكم في السيارة بعد تلك المناورة العجيبة وما زالت عيناه مثبتتين على تلك النقطة ومثله رغد..

كانت نقطة داخل زقاق ضيق صغير كان عدد من الفئران يقفون على قوائمهم الخلفية وعلى نقطة مرتفعة وقف فأر يبدو أكبر حجما بعض الشيء وكان يصدر صريرا منتظما وباقي الفئران يقفون في عدة صفوف منتظمة وكأن زعيمهم يلقي عليهم خطابا مهما وهم له مستمعون..

استمر الأمر عدة لحظات قبل أن يلحظ الرجل التفاتة مفاجئة من الفأر الزعيم إلى السيارة أصدر بعدها عدة صرصرات لتلتفت جميع الفئران دفعة واحدة إلى السيارة..

الفئران تفهم أن هناك متلصصين..

. انطلق بسرعة..

جاء الأمر مباشرا من رغد التي استوعبت سريعا أن الفئران تستعد لمهاجمة السيارة في هذه اللحظة.

أصدرت إطارات السيارة صريرا مرعبا ضاع بين أصوات البشر المنتشرين وصرخاتهم لتنطلق السيارة بسرعة وعبر المرآة الأمامية استطاع الرجل أن يلحظ جيش الفئران الذي طارد السيارة بسرعة جنونية..

إلا أن الأمر لم يستمر أكثر من دقيقتين اكتشفت فيها الحيوانات أنها لا يمكنها اللحاق بالسيارة المسرعة.

هدأت رغد للحظة وكذلك الرجل الذي أخذ يتحسس عنقه بألم في حين قالت الأولى:

. أين سنذهب الآن؟

نظر إليها الرجل سريعا وقال:

. لا أدري حقا ولكن يجب أن أتصل بالقيادة فورًا..

أخرج من جيبه هاتفه المحمول وضغط عدة أزرار سريعا قبل أن يتحدث عبر سماعة الأذن:

. نعم سيدي هما معي الآن ولقد تعرضنا لهجمة شرسة من الفئران..

ثم صمت قليلا ليردف قائلًا:

. أنهما بخير.. حسنًا سنكون هناك..

أنهى المكالمة سريعا قبل أن ينحرف بالسيارة جهة اليسار متجها إلى طريق آخر، فقالت رغد متسائلة:

. أين سنذهب؟

قال الرجل ببرود دون أن ينظر إليها:

. إلى زوجك سيدتي.

غرقت بعدها السيارة في صمتٍ مضجع وعينا رغد تتابع بخوف وقلق حشود الفارين في كل مكان وهذا الهرج الذي عم كل شبر في المدينة ولم يخلو المشهد بين فينة وأخرى من الفئران تلتهم جثة أو جثتين أو شخص يهرع فزعا وعلى جسده تتعلق بعض الفئران.. حتى

الهرج قد ساد الحيوانات فالقطط والكلاب كانت تصارع من أجل البقاء كالبشر تماما، وتهرع في كل مكان تجري بعشوائية!

. ماذا يحدث؟ ومن أين جاءت هذه الأعداد الهائلة من الفئران؟

مط الرجل شفتيه ولم ينطق ببنت شفه فهو في حقيقة الأمر لا يعرف أكثر مما تعرف هي فكل شيء حولهم مجرد جنون..

كانت السيارة في تلك اللحظة تنطلق بين تلتين ضخمتين في طريق المقطم ثم تنحدر مع طريق وعر رغم أنه ممهد قبل أن تغادر الطريق متجهة عبر مدق شديد الانحدار خلف إحدى الهضاب وهناك ظهر من بعيد سور مرتفع تعلوه سياج حديدية التفت السيارة حوله لمسافة تقارب النصف ميل حتى ظهرت بوابة إلكترونية عملاقة فتحت بمجرد اقتراب السيارة وخلفها ظهر جندي بالزي العسكري المموه وفي يده بندقية روسية الصنع نظر داخل السيارة فبادره الرجل الضخم قائلًا:

. ذئاب..

ما إن سمع الجندي الكلمة حتى أفسح الطريق للسيارة ففهمت رغد أنها كلمة السر المتفق عليها.. سارت السيارة قرابة الدقيقتين في ممر طويل قبل أن تتوقف أمام مبنى ضخم حديث البناء لا يحمل أي لوحات تعريفية كان موقعا عسكريا غامض هادئ بشكل غريب فباستثناء الجندي عند البوابة لم يقابلا مخلوقا واحدا حتى وصلا مدخل المبنى المصنوع كاملا من الزجاج..

توقف الرجل بالسيارة طالبا من رغد الترجل فنفذت طلبه دون أية مناقشة وهي تحمل ولدها الذي استغرق في نوم عميق..

صعدا عدة درجات لسلم عريض قبل أن يظهر خلف الباب الزجاجي رجل ضخم الجثة ببزة سوداء كأنه توأم الرجل الذي كان

بصحبة رغد يحمل بين ذراعية بندقية آلية ففتح لهما الباب وأشار بالتوقف فتوقفا قبل أن يتحدث كلمات مقتضبة عبر سماعة الأذن بعدها أشار للرجل بصحبة رغد بالانصراف وأشار إلى الأخيرة أن تتبعه..

نظرت رغد إلى حارسها نظرة امتنان قبل أن تنطلق خلف الرجل المسلح عبر ممرات رخامية طويلة وسط هدوء المبنى المقيت وكأن المبنى خال على عروشه تماما..

انحرف الرجل ورغد خلفه عبر ممر جانبي لتجد رغد نفسها أمام درج بوابة مصعد صغير ضغط الرجل زره ففتح الباب، أشار إليها بالولوج قبل أن يضغط الزر مرة أخرى فيغلق الباب لتنظر مندهشة لقد تركها بمفردها..

تحرك المصعد هبوطا لعدة طوابق حتى توقف فجأة ويفتح الباب لتجد أمامها سيدة نحيلة ترتدي معطفا أبيض كالذي يستخدمه الأطباء وعلى عينيها نظارة طبية وقد عقصت شعرها إلى الخلف على شكل ذيل الحصان وعلى شفتيها ابتسامة ودودة:

. مرحبا بكِ سيدة رغد..

حاولت الأخيرة الابتسام مجاملة لكنها فشلت فالإرهاق بدا جليا على ملامح وجهها الشاحب وشعرها المتناثر بعشوائية وذلك الطفل الذي اتخذ من كتفها وسادة لكنها رغم كل ذلك كانت تشعر باحتياجها لشيء واحد في هذه اللحظة إنه حضن زوجها وليد لهذا قالت متسائلة:

. أين وليد؟

هزت السيدة رأسها والابتسامة لا تزال على شفتيها قائلة:

. ستريه حالا ولكن لتتبعيني حتى تريحي الغلام..

وأشارت إلى الطفل قبل أن تتحرك وبخطوات مرهقة تبعتها رغد حتى أشارت السيدة إلى باب خشبي أبيض علقت عليه لوحة نحاسية صغيرة مربع كتب فيها "استراحة".

كانت غرفة تحتوي على عمودين من الأسرة ذات الطابقين وأربعة مقاعد جلدية وطاولة خشبية مستطيلة تتوسط الحجرة وسخان لإعداد المشروبات الساخنة وفي نهايتها باب صغير استطاعت رغد أن تعرف بسهولة أنه حمام فاتجهت بسرعة لتغلق بابه بعنف فضحكت السيدة وقالت:

. هنا لا تخشين أي شيء..

ثم أشارت السيدة إلى المكان وهي تقول:

هذه غرفتي وزميلتي لكنها لكِ ولطفلك الآن فأعتقد أن اليوم لا وقت للراحة..

ثم أشارت إلى تلفاز صغير وقالت:

. يمكنك متابعة الأخبار وكل شيء فالتلفاز موصول بالأقمار الاصطناعية كذلك هذا الزر..

وأشارت إلى زر أحمر بالجدار بجوار كابس التلفاز وهي تستدرج قائلة:

. إن احتجتِ أي شيء فلدينا هنا مطبخ هائل أرجو أن ينول رضاك..

وضحكت السيدة وهي تردف قائلة:

. نسيت أن أعرفك بنفسي أنني ملازم صيدلي سلوى، طبعا لا داعي لملازم اسمي سلوى وأعتقد أننا سنصبح صديقتين فلقد علمت أنكِ صيدلية مثلي!

ابتسمت رغد رغما عنها فسلوى كانت لبقة ودودة إلى أبعد حد كما أنها مألوفة بشكل كبير بعكس تلك الصورة الذهنية المطبوعة عن النساء العسكريات..

ثلاث طرقات على الباب دلف بعدها وليد لتتهلل أسارير رغد التي انطلقت لتعانقه بحرارة شديدة مما جعل وجه سلوى يحمر خجلا وهي تنسحب إلى الخارج دون استئذان حتى..

انتهى ذلك العناق قبل أن يقترب وليد من طفله الذي استغرق في نوم عميق على أحد الأسرة فلثمه في جبهته بحنو أبوي:

. أين نحن؟ وماذا يحدث بالضبط؟

قالتها رغد متسائلة في حين نظر إليها وليد وقال:

. إننا في مكان عسكري سري وقد تم نقلي إليه لأساند الحكومة المصرية في مواجهة ذلك الخطر..

قالت بانفعال:

. لقد كدت أموت أنا وابنك بين براثن تلك الفئران..

هز وليد رأسه في أسى واضح وقال:

. أعلم أن الأمر جنوني بالخارج ولهذا تم نقلنا إلى هنا وهناك مجموعة كبيرة أنا من بينهم نعمل على الأمر..

. ألم تتوصلوا لأية أسباب؟

صمت لحظة قبل أن يقول:

. ظهور مبالغ فيه لهرمون "التستستيرون".

رفعت حاجبيها مندهشة وهي تقول:

. مستحيل أن يكون هذا هو السبب فيما شاهدته هناك!

. ولماذا العجب أنتِ تعلمين أن التجارب كلها أثبتت أن هرمون الذكورة سبب رئيسي لزيادة العنف.. حتى على البشر فمعدل الجريمة عند الرجال أضعاف أضعافه عند المرأة وقد أجريت التجارب بالفعل على الفئران!

قالت بجدية:

. أعلم ما تقوله جيدا ولكن ما شاهدته يفوق العنف المقصود بمراحل هناك طفرة في ذكاء تلك الحيوانات بشكل ملحوظ يا وليد..

نظر إليها متعجبا وقال:

. ماذا تقصدين؟

. أقصد أنه مجال تخصصك فهذه الفئران مرت بطفرة وراثية حقيقية جعلتها أكثر ذكاء وكذلك أكثر شجاعة من المعتاد..

فكر وليد قليلا قبل أن يهم بالخروج قائلا:

. يجب أن أتأكد من هذا وبسرعة..

تركها خلفه وانصرف مسرعا وقد طرأت في رأسه فكرة..

بالخارج كان بانتظاره العقيد طه الذي استقبله بابتسامة هادئة إلا أن وليد بادره متسائلا:

. هل لدينا عينة من تلك الفئران؟

هز العقيد رأسه نافيا وقال:

. أعتقد ليس بعد وإن كانت موجودة فليست هنا بالتأكيد بل في الطب البيطري!

قال وليد:

. نريد عينتين واحدة للتشريح والأخرى حية..

قال طه:

. لا أعرف تماما سبب طلبك فأنت كما تعلم كل عملنا هنا على البكتيريا والفطريات والسموم ولكن سأحاول التواصل مع الطب البيطري ومعرفة ما يمكننا فعله حقا..

نظر إليه وليد وقال:

. يجب أن يكون لديكم هنا فئران للتجارب صح؟

ابتسم طه قائلا:

. بالتأكيد في المختبر..

. حسنا قدني إليه الآن..

دون تردد انطلق العقيد طه ومعه وليد عبر ممرات طويلة وفي نهاية أحدها توقف العقيد أمام باب ضخم من درفتين ووضع إبهامه على شاشة صغيرة قبل أن يفتح الباب ليجد وليد نفسه في مختبر عملاق به عدد كبير من البشر في أزياء متشابهة معاطف بيضاء وكمامات واقية..

كان الأمر أشبه بخلية نحل فكل شخص من رجال أو نساء مشغول بمجهر ينظر بداخله أو عدة قوارير بها بعض السوائل..

شعر وليد بالإثارة فهذا يذكره بمكان قدومه وعمله بالولايات المتحدة..

اقترب شاب في منتصف العقد الرابع من عمره قصير الشعر مائل إلى الشقرة وتحت معطفه الأبيض تبدو ياقة قميصه الكاكي العسكري..

أدى الرجل لـ طه تحية عسكرية قبل أن يمد يده مصافحا له ثم وليد..

. المقدم خالد قائد الموقع ضابط علمي..

قدمه طه لوليد الذي بدا لفظ ضابط علمي غير مترابط بالنسبة له بعض الشيء إلا أن طه أكمل قائلا وهو يشير إلى وليد:

. الدكتور وليد سيكون ضمن فريق المهمة وأرجو أن تقدم له كل العون.

هز خالد رأسه موافقا وقال بلهجة عسكرية صارمة:

. ينفذ يا أفندم.

قال وليد شارعا مباشرة في العمل:

. هل لجولة سريعة للتعرف على الإمكانيات المتاحة هنا؟

نظر خالد إلى طه ليستأذنه فهز الأخير رأسه موافقا وهو يقول:

. إنه واحد مننا الآن..

أشار خالد لوليد أن يتبعه وهو يقول:

. نحن هنا نعمل على محورين الوقاية والردع ففي ظل التطور السريع في عالم السلاح التقليدي، كذلك يشهد العالم صراعا خفيا على الأسلحة غير التقليدية ومنها بالطبع أقدم سلاح دمار شامل وهو السلاح البيولوجي وهذا دورنا الوقاية من أي فكرة لهجوم بمثل هذه الأسلحة وأيضا..

ثم مال على أذن وليد قائلا:

. يجب أن نمتلك سلاحا للردع وهذا عملنا الأهم..

فمنذ منتصف الستينيات من القرن الماضي ونحن نعمل على هذا المشروع بجد ونشاط وأعتقد لقد نجحنا إلى حد كبير في الحفاظ على سريته..

ثم ابتسم الرجل وهو يقول:

. هم يعلمون امتلاكنا لهذا البرنامج لكن عمليات التمويه نجحت إلى حد كبير ولم يستطع أحد من المتربصين أن يمتلك دليلا يديننا اللهم إلا كلمة للسادات رحمه الله إبان الحرب مع إسرائيل لوح بها مشيرا إلى امتلاكنا مثل هذه الأسلحة..

هز وليد رأسه موافقا وقال:

. لقد قرأت عدة مقالات تحدثت عن هذا الأمر بالفعل ولكنني أبدا لم أشك أن الأمر حقيقي يوما! ولكن دعنا من كل هذا فحتما تجاربكم تجرونها على الحيوانات وعلى رأسها الفئران؟

هز خالد رأسه موافقا، فأردف وليد قائلا:

. أريد مسحا كاملا لفأر تجارب بالأشعة بأقصى سرعة..

. هذا أمر شديد البساطة..

قالها خالد وهو يتجه إلى آخر المختبر حيث أقيمت مكتبة حوت عددا كبيرا من المراجع والملفات والتقط من بينها مظروفا صغيرا مربعا أتى به إلى وليد وأخرج منه قرص cd دسه في أحد الأجهزة أمامهما وبعض لحظات ظهرت عدة صور توقف خالد عند إحداها وأشار إلى وليد قائلا:

. هذه أشعة لفأر نرويجي..

اقترب وليد مدققا للنظر في الصورة وأشار إلى نقطة معينة قائلا:

. هل يمكن تكبير صورة المخ من فضلك؟

ضغط خالد عدة مفاتيح قبل أن تقترب الصورة أكثر وأكثر لتظهر بعض تجاويف المخ وتلافيفه بشكل غير واضح تماما قبل أن يضغط عدة مفاتيح أخرى لتبدأ الصورة في الوضوح حتى باتت جلية..

أشار وليد بيده إلى نقطة معينة وهو يقول:

. هنا غالبا يكمن السر..

نظر إليه خالد متعجبا وقال:

. وماذا تعني هذه النقطة تحديدا؟!

قال وليد وهو يشعل غليونه:

. هذه المنطقة هي المسئول الأول للذكاء..

ثم استنشق نفسا عميقا من دخان غليونه قبل أن يردف قائلا:

. إن المستقبلات النِّمْداوِيّة هي ثقوب حقيقية صغيرة جدا يعتقد معظم العلماء أنها تتألف من أربع وُحِيْدات (وحدات فرعية) subunits* بروتينية تتحكم في دخول أيونات الكالسيوم إلى الخلايا العصبية، وبالطبع نشاط هذه الجزئية عند الإنسان أقوى وأكبر لكنها تشبه إلى حد كبير عند الفئران.. فالفئران حقيقة من أقرب الحيوانات شبها بالإنسان ولهذا تكون الفئران أنسب لإجراء التجارب..

كان ما يسمعه خالد من معلومات قيمة جدا تؤكد أن اختيار القيادة لوليد كان في محله تماما، خاصة تشابه الفئران بالإنسان فقال:

. أنا أعلم إن رتبة الرئيسيات متشابهة إلى حد كبير مما يجعلها صالحة لإجراء تجارب عليها بديلا للإنسان..

ابتسم وليد قائلا:

. كلامك صحيح ولكن لماذا لم تطرح سؤالا منطقيا "لماذا الفئران تحديدا؟"

اعتدل خالد في وقفته وهو يقول بزهو الملم بالمعلومات العويصة:

. إن اعتماد العلماء والباحثين على الفئران والجرذان له عدة أسباب. أول هذه الأسباب هو الملائمة: حيث إنها صغيرة وحبسها والعناية بها أمر بسيط، ويمكنها التكيف جيداً مع البيئات الجديدة، إضافةً إلى سرعة تكاثرها وقصر عمرها حيث يتراوح بين السنتين والثلاث سنين، لذلك يمكن متابعة عدة أجيال من الفئران خلال فترة نسبية قصيرة من الزمن.

أيضا الفئران غير مكلفة نسبياً ونستطيع شراءها بكميات كبيرة من المنتجين التجاريين حيث إنهم يبيعون أصنافاً من القوارض مخصصة للأبحاث، والقوارض بشكل عام تكون معتدلة المزاج ومطيعة، والذي يَمكن الباحثين من السيطرة عليها بسهولة، بالرغم من وجود بعض أنواع الفئران والجرذان التي يصعب السيطرة عليها على عكس الأخريات.

غالبية الفئران والجرذان التي استعملت في التجارب الطبية كانت متطابقة، عدا اختلافات الجنس، أي نستطيع القول إنها متطابقة جينياً مما يساعد على أن تكون التجارب الطبية أكثر انتظاماً، وفقاً للمعهد الوطني لأبحاث الجينوم. وكحد أدنى يجب أن تكون الفئران المستعملة في التجارب من الأصناف الأصيلة.

وسبب آخر لكون القوارض استُعملت كمثال في الفحوصات الطبية هو كونها وراثية، وخصائصها البيولوجية والسلوكية تشبه تلك

الموجودة في الإنسان. والكثير من تصرفات الإنسان يمكن ملاحظتها على الفئران والجرذان.

الجرذان والفئران هي ثدييات تشارك البشر في العديد من العمليات كما أن إجراء البحوث عليها سيساعد في الإجابة على كثير من الأسئلة"، وفقاً لما قاله جيني هاليسكي ممثل المعهد الوطني للصحة ومكتب مختبر رعاية الحيوان.

إن هذه التشابهات زادت على مدى العقدين الماضيين، وتمكن العلماء الآن من جعل الفئران تلد فأراً جينياً وراثياً أسموها "الفئران المعدلة وراثياً" التي تحمل جينات مشابهة للجينات المسببة للأمراض البشرية، وكذلك تحديد الجينات يمكن إيقافه أو جعله غير نشط، مشكلاً "فئران الضربة القاضية" والذي يمكن استعماله لتقييم آثار المواد الكيميائية المسببة للسرطان (المسرطنة) وتقييم سلامة الأدوية..

وفقاً لل (FBR) فإن القوارض تجعل بحوث الحيوانات فعالة لأن كلا من علم التشريح وعلم وظائف الأعضاء وعلم الوراثة مفهومة جيداً من قبل الباحثين. الذي يجعل الأمر أسهل لذكر التغييرات في سلوك الفئران أو الخصائص المسببة لذلك. بعض القوارض تسمى SCID (نقص المناعة المشترك المزمن) حيث إن الفئران تولد طبيعياً بدون جهاز مناعي وبالتالي يمكن أن تكون كنماذج لأبحاث الخلايا البشرية العادية والخبيثة. وفقاً لل FBR. بعض الأمثلة عن اضطرابات وأمراض الإنسان التي تُحدد باستعمال الفئران والجرذان كنماذج: ارتفاع ضغط الدم مرض السكري إعتام عدسة العين السمنة النوبات مشاكل في الجهاز التنفسي الصمم مرض باكنسون مرض ألزهايمر السرطان التليف الكيسي فيروس نقص المناعة البشرية والإيدز مرض القلب ضمور العضلات إصابات في النخاع الشوكي.

وتستخدم الفئران أيضًا في الاختبارات السلوكية والحسية، والشيخوخة والتغذية والدراسات الجينية، بالإضافة إلى اختبار الأدوية المضادة للرغبة القادرة على إنهاء إدمان المخدرات.

إن استخدام الحيوانات في البحوث أمر بالغ الأهمية يساعد على فهم علمي للأنظمة الطبية الحيوية، ويؤدي إلى اكتشاف أدوية وعلاجات مفيدة..

ابتسم وليد وهو ينظر بإعجاب لخالد فمعلوماته غزيرة لكن ابتسامته لم تلبث أن اتخذت شكلا جديا وهو يقول:

. أحسنت حقا..

شعر خالد بمزيد من الزهو إلا أن وليد قال مستدرجا كأنه يكسر حاجز الزهو المغرور:

. يتشارك الفأر بـ 90 في المائة من جيناته مع الإنسان، ومن ضمنها تلك التي تشكل المخ. وقال الدكتور ألين جونز رئيس الباحثين في المعهد، معلقاً على نشر الأطلس، أنه قد يكون للكثيرين «المفتاح لحل أسرار العديد من أمراض الدماغ».

ويظهر الأطلس الجينات التي تكون أكثر نشاطا من غيرها داخل مناطق معينة من المخ، الأمر الذي يقدم معلومات تساعد على كشف الوظائف داخل الدماغ لدى تعرضه لمختلف الأمراض. وتأتي هذه النتيجة غداة إعلان العلماء (في السابق) عن نتائج أعمالهم في مشروع الجينوم (الأطلس الوراثي) البشري الذي قاد إلى التعرف على أطلس الفأر. إلا أن العلماء العاملين في مشروع ألين لوضع أطلس المخ سعوا إلى التعرف على موقع تلك الجينات التي تعمل في مخ الفأر. وقد صمموا مجهرا افتراضيا (على موقع brainatlas.org الإلكتروني) يقدم

تكبيرا لخريطة مجسمة بالأبعاد الثلاثة، على مستوى الجزيء..وهذا سببا آخر أهم لإجراء 95% من التجارب على الفئران..

تنهد وليد قبل أن يقول وهو شارد:

. والآن وبعد كل ما سمعت يقودنا الأمر إلى شيء واحد ندعو الله أن تكون كل علومنا على خطأ..

نظر إليه خالد وقد اتسعت حدقتاه بشدة فلقد وعى تماما ما يشير إليه وليد في هذه اللحظة وقلبه يخفق بشدة..

***

الفصل السادس

كان فك حسني السفلي يكاد يلامس الأرض وهو ينظر إلى ذلك الشيء أمامه، في حين ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه حسين مدكور وهو يقول:

. هذا أكبر إنجازاتي..

كان يشير إلى قفص حديدي بارتفاع متر ونصف المتر وعرض وعمق ثلاثة مترات وعرض أقل من المتر تقريبا موضوع على طبلية ذات عجلات..

ثم تبدلت نظرات حسين إلى أسى مصطنع وهو يشير إلى داخل القفص ويقول مستمرا في طريقته المسرحية المقيتة وهو يرمق حسني الذي بدا منفعلا بشدة وهو يحاول فك قيوده:

. لكن رغم النجاح بيولوجيا إلا أنه نجاح ناقص..

ما كان داخل القفص يؤكد بما لا يدع مجالا للشك أن حسني الآن تحت رحمة شخص مجنون بكل ما تعني الكلمة بحق فأمامه مباشرة ورغم العقار المهدئ الذي حقنه به حسين ما جعل عقله يستيقظ دفعة واحدة! طفل صغير طوله لا يتخطى 70 سم كان عاريا تماما من الثياب.. إلى هنا المعلومة بسيطة لكن الغريب هي ملامح ذلك الطفل المشوهة فنصف وجهه الأيسر كان مغطى بالشعر البني الداكن كما أن شفاهه كانت مشقوقة كتلك الشفاه الأرنبية المعروفة، وبدا من بين

شقيها قاطعتان عريضتان كتلك لدى القوارض، كما انتشرت شعيرات خفيفة على جسد الطفل..

بطريقته الهزلية المجنونة قال حسين:

. لا تقلق لم أختطفه بل صنعته..

. أنت مجنون!!

قالها حسني بصعوبة وهو يتابع ذلك الشرح المجنون لحسين الذي انفجر ضاحكا وهو يقول:

. وهل بالدنيا غير الجنون يا صديقي؟!

كان حسني يلهث مع محاولاته المستميتة والفاشلة للتخلص من قيوده ويقول:

. هل وصل الأمر لاستغلال الأطفال؟

رفع حسين حاجبيه بدهشة مصطنعة وهو يقول:

. ومن قال هذا؟ أنه ابني..

هدأت حركة حسني فجأة وفاه فاغر على آخره وعيناه جاحظتان بشدة وهو ينظر إلى حسين الذي بدا أنه يهذي، لكن الأخير قال بثقة:

. العلم يا عزيزي لا يمنع بعض المتعة وما أسهلها في هذه الأنحاء.. فتاة ليل أتيت بها وبعد مطارحتها الغرام..

ثم غمز بعينيه وهو يقول مردفا:

. وقد كانت محترفة بحق، وبعد مجهود شاق منها لإرضائي خدرتها لأخذ عينة من بويضاتها ولم يكن صعبا الحصول على مني ذكري وبيئة جيدة للتخصيب ولكن لم تكن رغبتي في طفل عادي بل أردت طفلا من

نوع خاص واستطعت خلط بعض صفات فأري العزيز الذي رأيته بالخارج..

مط حسين شفتيه وقال:

. لكن الأمر يلزمه الكثير من الوقت، كما أن هذا المسخ غير مستعد الآن لهذا قررت البدء مرة أخرى وبشكل أسرع مع إنسان كامل وأنت تعلم يا عزيزي أن التأثير الذي يظهر على الفأر في شهر قد يحتاج سنوات لدى البشر ولهذا ركزت مادتي السرية لك لتصيح مائة ضعف ما حصل عليه الفأر..

كان جسد حسني ينتفض بشدة وهو يسمع هذا الحديث من المجنون حسين، الذي قال:

. صدقني إنني أفعل هذا لصالح الجميع ولولا أن الأعراض الجانبية لم تظهر بعد لكنت أجريتها على نفسي، لكن هه! كتب لك أن تكون أول من يصنع التاريخ...

أكمل عبارته وانفجر ضاحكا..

***

. ماذا يعني هذا بالضبط؟

قالها نائب رئيس الجمهورية بعصبية وهو ينظر إلى رئيس جهاز المخابرات الذي يقف أمامه بمكتب الرئاسة، قبل أن يجيب الأخير قائلا:

. تلك هي الحقيقة المؤلمة يا سيدي فكل إجراءات الطب الوقائي وجهاز مقاومة الآفات بالتعاون مع الطب البيطري فشلت في السيطرة فالأعداد هائلة وكل الفخاخ والمبيدات لم تأت ثمرتها بل أن فخا واحدا لم يصطد فأرا وكأننا نتعامل مع كائنات من عالم آخر شديدة الذكاء!

صمت نائب الرئيس وهو يحلل تلك المعلومات الخطيرة التي تلقاها الآن من رجله في المخابرات فالأمر لم يعد عملا مخابراتيا فقط يحقق في اختراق أمني تسبب في مقتل رئيس الجمهورية؟! بل تحول إلى هجوم شامل على الدولة بأثرها يهدد أمن المواطنين في كل مكان!

. ما زلت عند اقتراحي سيدي بصنع منطقة عازلة حول المنطقة الموبوءة حتى يتوصل علماؤنا إلى حل عملي..

ظل النائب صامتا لدقيقة كاملة قبل أن يتنهد قائلا:

. هل الجنوب ما زال بخير؟

هز رئيس المخابرات رأسه قائلا:

. كل المعلومات تشير إلى ذلك..

استنشق النائب نفسا عميقا وقال:

. حسنا لنحافظ على ما يمكن المحافظة عليه..

لم تمض ساعة واحدة حتى كانت جحافل من السيارات المدرعة تخترق شوارع القاهرة وعددا من المدن القريبة ومعها جنود مدججين بالسلاح يرتدون أقنعة واقية وعلى الجانب الآخر من القاهرة كان الجيش والشرطة يتعاونان مع سلاح المهندسين بالجيش لفرض طوق أمني يفصل بين القاهرة ووجه قبلي فترى مشهدا شديد التعقيد بين الأسلاك الشائكة المكهربة وبناء حواجز جاهزة التصميم..

كانت القاهرة يتم عزلها تماما عن باقي البلاد..

حالة من الهرج القاتل تعم البلاد ونداء عبر وسائل الإعلام يدعو الجميع للهجرة من القاهرة عبر ممرات آمنة وضعتها القوات..

ومن مشهد رأسي تكدس مئات الألوف من المواطنين بسياراتهم ومترجلين في الطرقات منتظرين أدوارهم في المغادرة إلى مكان آمن

مشهد كتلك المشاهد التي امتلأت بها الأفلام الأمريكية فرارا من فيروس قاتل أو وباء منتشر أو حتى الزومبي.. لكن في مصر كان من يسيطر على الأوضاع شيء مختلف تماما إنها الفئران..

***

استغرق وليد في التفكير وهو يتابع شاشة الحاسب الآلي الظاهر على سطحها صورة بالأشعة لمنطقة المخ لدى الفأر وكأنه يحاول حفظ كل جزء فيها..

كان خالد يتابعه من بعيد وهو يشعر بما يدور بخلده في هذه اللحظة تماما..

لقد كان وليد يستعيد كل تلك الذكريات القريبة منذ آخر أيامه في أمريكا ويذكر تلك المشادة الكلامية التي حدثت بينه وبين زميله اليهودي ديفيد عندما تطرق الحديث إلى التقدم الذي تشهده إسرائيل بالنسبة لما حولها من الدول العربية وقتها قال وليد بانفعال:

. إننا نمتلك العقول ولكنكم تقتلوها..

ضحك ديفيد بشدة قائلا:

. ستظلون تعلقون خيبتكم على شماعة مخابراتنا.. يا عزيزي أنتم تبغضون العلم وبلادكم تلفظ العلماء هل أذكرك بأسماء علمائكم الذين تركوا بلادكم؟ أنت نفسك نموذج حي لهجرة العلم عن بلادكم!

كان لكلمات ديفيد أكبر الأثر في نفس وليد فهو نفسه لجأ إلى الخارج في حين كانت حياته ستختصر لو ظل في وطنه إلى مجرد فني في أحد المعامل الطبية أو مدرس علوم في أحد المدارس يصيبه الطبشور بداء الرئة مقابل حفنة جنيهات يتقاضاها كل شهر..

لكن هناك بجانب العلم كانت الدولارات التي تدفق إلى حسابه البنكي..

لماذا قرر العودة فجأة؟

سؤال راوده بشدة هل أراد بدافع نفسي أن يثبت لديفيد أنه ليس مصيبا؟

في كل الأحوال عاد ليجد نفسه فجأة في بلدة تقف بكل مؤسساتها عاجزة عن تلك المواجهة العجيبة لا تستطيع حتى أن تواجه جرذان مجرد جرذان..

أسئلة عدة تجوب في داخله وهو يجلس ليتابع تلك التلافيف شديدة التعقيد داخل رأس جرذ التجارب الذي لا يتخطى بضع جرامات!

ثم ينظر إلى هذه الأعداد من العسكريين العلماء وعملهم الدؤوب من أجل ردع أقوى الجيوش في حين أن جيش من أهون المخلوقات يبث الرعب في نفوسهم..

كانت فترة الذكريات والتأمل طويلة قبل أن يسمع صوت نغمة متقطعة تصدر عن أحد الأجهزة فتوجه إليه خالد بسرعة ليقرأ رسالة وردت عبر شبكة مؤمنة ويلتفت إلى وليد قائلا:

. لقد وصلت صورة أشعة لأحد الفئران التي شاركت في الهجوم على سائق وشخص آخر..

قفز وليد من مقعده وهو يهتف قائلا:

. حولها إلى هذا الجهاز فورا..

تعامل خالد مع بعض المفاتيح قبل أن تصدر النغمة المتقطعة من الجهاز بالقرب من وليد والذي فتح الملف لتظهر عدة صور إشعاعية لفأر كانت أغلب عظامه مهشمة إلا أن رأسه كانت سليمة وذلك ما جعل وليد يشعر بالارتياح..

كان خالد يقف بجانبه والأول يعرض صورتي الفأرين أمامه على الشاشة لإجراء مقارنة..

كان الاهتمام باديا بشكل كبير على ملامح وليد لتتبدد فجأة ويحل محلها تعبيرات التوتر..

كان خالد يعلم أن وليد قد اكتشف شيئا خطيرا خاصة مع تكرار عرضه لنقطة بعينها بحجم أكبر في كلا الصورتين للفأر المهاجم وفأر التجارب..

ثم نظر وليد فجأة لخالد قائلا:

. أريد رغد هنا حالا؟

. من رغد؟

. زوجتي يا رجل!

تردد خالد قليلا وهو يقول:

. لا أدري إن كان مسموحا لأحد غيرك بالولوج هنا أم.....

قاطعه وليد قائلا:

. اتصل بالقائد فورا أريد محادثته الآن..

أخرج خالد جهازا لاسلكيا صغيرا من جيب معطفه وقرب فمه منه وأخذ يتحدث بصوت منخفض بعد أن نأى بنفسه بعيدا عن وليد وبعد أقل من دقيقة عاد إليه قائلا:

. القائد قادم فورا ومعه السيدة..

عاد وليد يدس بوجهه في شاشة الحاسوب وهو يغمغم بكلمات لم يستطع خالد سماع شيء منها سوى كلمة واحدة "مستحيل!!"

مرت عشر دقائق كاملة قبل أن يفتح الباب ويظهر العقيد طه وبجواره رغد التي نظرت إلى المكان متعجبة فاقترب منهما وليد بترحيب فاتر قبل أن يبادر رغد قائلا:

. أريدك أن تشاهدي شيئا أظنك تعلمينه جيدا..

شعرت رغد بالإحراج وهي تقول:

. لكن أنت تعلم أنني لم أطأ مختبرا منذ مولد معاذ؟!

قال العقيد طه متدخلا في الحديث وعلى وجهه ابتسامة هادئة:

. من المؤكد أن السيد وليد يعلم قدراتك وإلا لما طلب حضورك بهذه السرعة، كما أن الأمر يبدو خطيرا فقد طلبني أنا نفسي للحضور!

مطت رغد شفتيها مستسلمة وهي تتبع وليد باتجاه الحاسوب وعنده قال موجها حديثه إلى ثلاثتهم رغد وطه وخالد وهو يشير إلى صورتين تكادان تتطابقان:

. هاتان صورتان لمخ فأرين أحدهما فأر تجارب عادي والثانية وردت إلينا من الطب البيطري لفأر مشارك في هجوم فهل يلحظ أحدكم شيئا؟؟

دقق خالد النظر قبل أن يهز رأسه نفيا:

. لا شيء غريب..

نظر وليد إلى زوجته قائلا:

. وأنتِ يا رغد؟

قالت بنبرة غاضبة بعض الشيء:

. هل أتيت بي لعقد اختبار الآن؟!

ضحك وليد وهو يقول مازحا:

. دائما أنت في عجلة من أمرك وكان الأولى أن تكوني أكثرنا ملاحظة في هذا!

. أنا صيدلانية ولست متخصصة في التشريح!

ابتسم لها وليد ابتسامة ودودة وقال:

. إنكِ صاحبة الاكتشاف يا عزيزتي ولولاك ما كنت سأكتشف الفرق ولكن حسنا سأختصر الأمر..

أشار إلى نقطة معينة على فيلم الأشعة للفأر العادي وكانت سوداء مظلمة وقال:

. حقيقة الأمر أن هذه النقطة التي أشير إليها تحديدا هي النقطة المسئولة بدورها عن التعلم والذاكرة وهي تشبه ما في البشر إلى حد بعيد..

قال طه الذي فاجأ الجميع بحديثه:

. هل تقصد تلك النظرية التي وضعها الكندي د.(هب) حول العصبونات؟

ابتسم وليد فزي العقيد العسكري جعله يستبعد بشكل كبير كون الرجل له أية علاقة بالعلوم وخاصة الطبية منها.

يبدو أن العقيد طه لاحظ ذلك الاندهاش فاعتدل في وقفته قائلا:

. أنا عقيد طبيب في الأصل يا سيد وليد.. وستندهش أكثر إذا أخبرتك أنني تخصص مخ وأعصاب أيضا.

كانت الصدمة مضاعفة على الجميع إلا أن وليد تمالك نفسه سريعا وهو يقول:

. إذن لا أفضل منك لتشرح لنا النظرية هنا.

قال العقيد طه متقمصا دور المحاضر:

. يمتلك الدماغ البشري ما يقارب 100 بليون من العصبونات (الخلايا العصبية) neurons التي يترابط بعضها ببعض في شبكات تؤدي إلى قيام تشكيلة من الصفات العقلية والاستعرافية cognitive المميزة، مثل الذاكرة والذكاء والانفعال والشخصية. وقد تم وضع أسس فهم الآليات الجينية والجزيئية للتعلم والذاكرة في عام 1949، حينما عرض عالم النفس الكندي (هب) فكرة بسيطة (ولكنها جوهرية) يفسر بها الكيفية التي تتمثل بها الذاكرة وتُختزن في الدماغ. فقد افترض، فيما يعرف الآن بقاعدة هب للتعلم Hebbs learning rule، بأن الذاكرة تتولد حينما ينشط عصبونان مترابطان بشكل متزامن على نحو يقوي مِشْبَكَهُما synapse بطريقة ما. ويعرّف المِشْبَك بأنه موضع تماس العصبونين أحدهما مع الآخر. ففي المشبك تسري المعلومات على شكل كيماويات تدعى النواقل العصبية neurotransmitters من الخلية قَبْل المشبكية presynaptic إلى أخرى تدعى الخلية بعد المشبكية postsynaptic.

صمت العقيد طه بعد هذه المعلومات التي قدمها للمجموعة فأخذ وليد زمام المبادرة قائلا:

. لكن الأمر لم ينته هنا فقط في عام 1973، تمكن (P.V.T. بلِسْ) وT. لومو) أثناء عملهما في مختبر بِر أندرسن في جامعة أوسلو، من اكتشاف نموذج تجريبي يتفق والسمات المميزة لنظرية هب. فقد وجدا أن الخلايا العصبية في منطقة دماغية تشبه في شكلها شكل حصان

البحر (وتدعى لذلك الحصين (قرن أمون) hippocampus، من الأصل الإغريقي "مسخ البحر ذو رأس الحصان") أصبحت أوثق ترابطا لدى تنبيهها بسلسلة من النبضات الكهربائية العالية التواتر. ويمكن لهذه الزيادة في قوة التشابك . التي تعرف باسم ظاهرة التعزيز الطويل الأمد (long term potentiation ،LTP) . أن تدوم ساعات أو أياما أو حتى أسابيع. إن تَوضُّع الظاهرة LTP في الحُصَيْن يشكل حقيقة آسرة على وجه الخصوص، لأن الحصين بنية دماغية أساسية لتكوين الذاكرة لدى البشر والحيوانات كليهما.

أنهى وليد عرضه للمعلومة قبل أن يشير إلى المنطقة الظاهرة على الشاشة قائلا:

. وهذه هي الحصين عند فأر التجارب العادي أما إذا انتقلنا هنا عند الفأر الشرير سنجدها بهذا الشكل.

أردف حديثه بتكبير صورة مخ الفأر الذي قام بالهجوم ليرى الجميع الفارق واضحا بعد شرح وليد وقبله العقيد..

ساد الصمت لحظة قبل أن يستدرج وليد وهو يشير إلى منطقة معينة راسما حولها دائرة وهمية بإبهامه وهو يقول:

. إنها المستقبلات النمداوية هنا أكبر كثيرا منها عند الفأر الآخر!

قال خالد متعجبا:

. وماذا يعني هذا تحديدا؟!

وهنا تتدخل رغد:

. يعني أن المستقبلات النمداوية أكثر نشاطا مما يجب مما يجعل الظاهرة LTP أكثر نشاطا في مقابل الظاهرة LTD أي أن التحفيز

للمنطقة المسئولة عن الذاكرة والتعلم ويرمز لها بالرمز LTP فعال بشكل أكبر من الإخماد LTD..

ابتسامة عريضة ارتسمت على شفتي وليد بعدما تدخلت زوجته رغد في الحديث فقد نجح تماما في إشراكها كما أراد..

قال العقيد الذي شد شفته السفلية بسبابته وإبهامه كأنه سيطلق صفيرا:

. كل هذا رائع ولكنه يوصلنا لشيء ليس بجديد، وهو أننا نتعامل مع فئران ذكية وهذا قد لاحظناه بسهولة!

التفتت رغد إليه وهي تعتدل بجوار زوجها وظهرها للحاسوب وقالت:

. بل نحن نتعامل مع فئران سوبر دوكي..

رفع طه وخالد حاجبيهما في بلاهة، لكن رغد أردفت قائلة:

. الفئران دوكي فئران مهندسة وراثيا تم صناعته من أجل البحوث عن علاج لأمراض مثل ألزهايمر وعلاج المصابين بتلف دماغي وكانت قد سبقتها محاولات عدة بخلق فئران منتقصة جينيا قبل أن ينجح د Z.J. تسين وزملاؤه سنة 1999 في إنتاج الفئران من نوعية دوكي، كيف تختلف الفئران الدوكية عن الفئران الأخرى؟ لقد جرى هندستها وراثيا (جينيا) بحيث تنتج كميةً تفوق الكمية المعتادة من وُحَيْدة subunit رئيسية لبروتين يدعى المستقبلة النمداوية NMDA receptor N . ميثيل D. أسبرتات N. methyl. D aspatate).ماذا تفعل المستقبلة النمداوية؟ إنها تساعد على تقوية الاتصال بين عصبوانين يصادف أن يكونا نشيطين في الوقت نفسه. ويتصور العلماء أن مثل هذه التقوية تشكل أساس التعلم والذاكرة، كيف يجعلها التغيير الوراثي أكثر ذكاء؟

تبقى المستقبلات النمداوية للفئران الدوگية مفتوحة لمدة تقارب ضعف نظيرتها لدى الفئران العادية. ويساعدها هذا الزمن الإضافي بطريقة ما على تكوين ذاكرة جديدة بطريقة أكثر فاعلية.

أشارت رغد إلى الصورة وهي تستدرج قائلة:

. وهذا ما حدث هنا لكن بشكل يفوق ما لدى فئران دوكي لهذا أطلقت عليها سوبر دوكي، حقيقة الأمر أن وقتها المشروع توقف عند الفئران لأن الموضوع أكثر صعوبة عند البشر فتركيب المنطقة أكثر تعقيدا كما أن هناك قيودا أخلاقية وأدبية على إجراء مثل هذه الهندسة الوراثية على البشر وترك الأمر برمته لشركات العقاقير لإبداع مواد يمكنها أن تقوم بهذه العملية وهذا ما عملت أنا عليه مع مجموعة من العلماء بأمريكا قبل أن أترك عملي..

هنا تدخل وليد منهيا الأمر وقال:

. خلاصة الأمر أن ما نواجهه فئران معدلة وراثيا شديدة الذكاء كما أنها عنيفة وهنا نقف عند المشكلة الكبرى من قام بهذا وكيف وصلت إلى هنا؟

. والأهم من كل هذا ماذا يمكنها أن تفعل بهذا المعدل العالي من الذكاء؟

قالتها رغد وهي تضغط على شفتها السفلى، فما يواجهانه يؤكد أنهم أمام فعل شيطاني مجهول المصدر ومجهول المصير أيضا..

في هذه اللحظة صدر أزيز غامض التفت الجميع إلى مصدره، لقد كانت مصابيح الإضاءة التي تذبذبت إضاءتها بشدة منبئة بانقطاع التيار وبدا ذلك جليا من شاشات الحواسيب التي أظلمت فجأة وبعدها عم الظلام كاملا على الموقع بل على العاصمة كلها في هذه اللحظة لتبدأ مرحلة جديدة من المواجهة..

. سيدي يجب نقلك فورا إلى مكان آمن وجودك هنا أصبح به خطر عليك.

قالها الرجل ضخم الجثة وشاربيه الكثين وبشرته السمراء، إنه قائد الحرس الجمهوري..

كان نائب الرئيس ما زال يتابع ببصره حديقة القصر الرئاسي بأشجارها الفارعة المشذبة بعناية وزهورها الزاهرة، دون أن يلتفت إلى محدثه لكنه قال:

. اقترب هنا يا سعيد..

اقترب الرجل بهدوء ودهشة، في حين أشار نائب الرئيس إلى الحديقة عبر الشرفة قائلا:

. انظر يا سعيد إلى هذه الحديقة وجمالها؟

نظر سعيد إلى نائب الرئيس بدهشة، فهو يطلب منه إجلاءه إلى مكان آمن والنائب يحدثه عن حديقة القصر أي خبل أصاب رجلا يقوم بمهام رئيس البلاد!!!

بالطبع لم يصارحه سعيد بما يدور بخلده ولكنه قال محاولا تذكير نائب الرئيس:

. سيدي أنت في خطر هنا والإجراءات الأمنية تمنع بقاء سيادتك في القصر؟!

ابتسم نائب الرئيس ساخرا وقال:

. إجراءات أمنية! !!

هز سعيد رأسه موافقا، فأردف نائب الرئيس قائلا:

. وماذا عن 10 ملايين نسمة مهددون بخطر مجهول في هذه اللحظة؟ ألا يلزمهم إجراءات أمنية؟!

تعجب سعيد من حديث الرجل الذي كان مصيبا تماما لكن واجبه كان الحفاظ على حياة وسلامة الرئيس أو من يقوم مقامه مهما كلف الأمر لهذا قال:

. سيدي الجيش والشرطة يقومون بما عليهم فعله لحماية المواطنين حتى لو لزم الأمر لاستخدام جميع الأسلحة..

. ها ها ها، أسلحة أية أسلحة يا رجل؟ كم فأرا يمكنك قتله بسلاحك؟

كان حديث نائب الرئيس يزداد غموضا وغرابة إلا أن سعيد تمالك كل أعصابه قبل أن يتخذ الخطوة الرسمية إذا ما زاد الأمر سوءا وقال:

. ماذا تقصد يا سيدي؟

نظر النائب مرة أخرى إلى الحديقة وقال:

. تلك الحديقة الرائعة التي سألتك عنها وتجاهلتني، هل تعرف لما سألتك عنها؟

هز سعيد رأسه نافيا فأردف النائب قائلا:

. في الوقت الذي تحيط بنا تلك الحديقة الجميلة هناك مئات الألوف تحيط بهم أكوام القمامة، يحيون بأمراضها بين رائحتها وبعضهم يلتقط من بين تلالها لقمتهم!

هل تفهم ما معنى أكوام القمامة يعني يعيشون بين براثن الفئران جنبا إلى جنب، فهلا تساءلت الآن أين سيفرون من مصيرهم؟ كيف سيواجهون جيرانهم من الفئران المتوحشة؟!

. سيدي لا أعي ماذا تريد إخباري به تحديدا فالوقت يداهمنا؟!

كان سعيد يتحدث بفراغ صبر واضح، في حين رد النائب قائلا:

. إننا نواجه المجهول بأسلحتنا التقليدية التي أنفقنا عليها المليارات على مدار سنوات وسنوات مع إن المفروض أن نكون الآن نمتلك السلاح الصحيح بدلا من البنادق والطائرات والمدافع..

. وما هو يا سيدي ذلك السلاح؟

. العلم يا سعيد العلم، أننا نواجه الآن حصاد عقود من الجهل وقتل العلم وتهجيره فهل ستكفي القنابل لمواجهة الفئران؟ هل تعتقد أن جيشك وشرطتك الذين يستطيعون مواجهة أعتى جيوش العالم أن يصمدوا أمام جيش الفئران؟

مط نائب الرئيس شفتيه بأسى وقال مستدرجا:

. كم كنت أتمنى أن يكون لدي الآن جيشًا من العلماء، وليس من الجنود المدججين بالسلاح!

اعتدل نائب الرئيس فجأة وقال باهتمام:

. اسمع يا سعيد أنا أعلم إن رأسك الآن يدرس تنفيذ خطتك البديلة وهي نقلي بالقوة وهذا واجبك ولن يلومك عليه أحد...

كان هذا ما يفكر فيه بالفعل سعيد في هذه اللحظة بل أنه بدأ بالفعل فضغط زر خفي أسفل حزامه سيتبعه بعد لحظات دخول عناصر الحرس الجمهوري لاقتياد نائب الرئيس أو الرئيس المؤقت لمنزل آمن بالقوة!

هز سعيد رأسه موافقا وقال:

. كنت أتمنى يا سيدي الخروج معي بدون متاعب.

ربت النائب على كتف سعيد قائلا:

. أنت مخلص لعملك يا بني لكن إن كنت تريد نقلي فمكاننا الآن ليس الفرار بل يجب أن نكون الآن بين أفراد جيشنا لحماية هذا الوطن..

رفع سعيد حاجبيه دهشة وقال:

. لا يمكنني السماح بنزولك للشوارع والميادين سيدي!

ضحك النائب قائلا:

. بل جيشنا جيش آخر، كذلك الذي كنت أحدثك عنه منذ قليل بضع علماء الآن هم وحدهم القادرون الآن على صد هذا العدوان، يجب أن أكون معهم في هذه اللحظات الحرجة يا بني؟

صمت سعيد قليلا مفكرا قبل أن يقول:

. ولكن هذا مستحيل يا سيدي فإذا سمحت أنا بذلك فلن يوافق حراسك الشخصيون.

اقترب النائب من أذنه مستندا على أطراف أنامله ليستعيض فرق الطول وقال:

. لكنك ستخرجني الآن..

نظر إليه سعيد وقد عقد حاجبيه، وعقله يحسب حساباته كلها، فما يريده النائب قد يكلفه الكثير ربما حياته نفسها..

***

الفصل السابع

ساد الظلام على مختبر موقع الحرب البيولوجية لعشرة دقائق كاملة قبل أن تومض المصابيح مرة أخرى وتعود الإضاءة..

. المولدات بدأت في العمل لكنها لن تدوم كثيرا مع كل تلك الأجهزة!

قالها العقيد طه بقلق شديد، في حين تبادل كل من رغد ووليد النظرات المتوترة قبل أن يقول خالد الذي كان يدس في هذه اللحظة هاتفه الجوال بجيبه ووجهه يتصبب عرقا:

. يبدو أن الاتصالات أيضا قد قطعت!

قال وليد:

. إذن نحن سجناء الآن هنا؟!

. أمامنا عدة ساعات فماذا يمكن أن ننجز فيها؟

قالت رغد:

. أعتقد أن ما لدينا هنا غير كاف فصور الأشعة لا تفي بالغرض..

هز وليد رأسه موافقا:

. إذا كان الوقت يداهمنا فيجب الإسراع في تحليل عينات من تلك الفئران وبسرعة..

قال خالد:

. تلك مشكلة أخرى، فالعينات بالطب البيطري والاتصالات مقطوعة، وسيستغرق إرسال أحد للإتيان بها وقت طويل!

ساد الصمت لفترة طويلة على المجموعة قبل أن يقطعه وليد قائلا:

. يمكننا اختصار نصف الوقت إذا ذهبنا نحن إلى هناك..

قال العقيد طه:

. ولكن الإمكانات هناك لن تكون بنفس الكفاءة هنا، كما أن هناك خطرا على الجميع في الخروج!

قال وليد:

. بالنسبة للإمكانيات فيمكننا العمل بما لديهم أيا يكن لكن علينا تدبر وسيلة نقل آمنة وسريعة خاصة مع تلك الفوضى؟

تفكر طه قليلا قبل أن يقول:

. هناك حل وحيد..

نظر إليه الجميع بانتباه، في حين نظر طه إلى خالد قائلا:

. أعطني جهازك اللاسلكي..

ناوله الأخير جهازه بسرعة فالتقطه منه وذهب إلى ركن بعيد وهو يحول مؤشر الترددات ويتحدث بشيء غير مسموع لدقيقة كاملة قبل أن يعود إليهم ويقول:

. أتمنى أن تنجح الخطة..

نظر إليه وليد قائلا:

. ما خطتك سيدي؟

. استدعاء هليكوبتر عسكرية لكن أجهزة اللاسلكي قصيرة المدى لهذا قمت بتمرير رسالة إلى قيادة الجيش عبر أقرب النقاط العسكرية لدينا وأتمنى أن تصل الرسالة في الوقت المناسب..

مرت نصف الساعة قبل أن يسمعا صوت جهاز اللاسلكي يصدر طرقعة مكتومة، فالتقطه طه بسرعة وهو يسمع النداء "من صقر واحد إلى أسود البر.. من صقر واحد إلى أسود البر"

. من أسود البر إلى صقر واحد نحن نسمعك بوضوح

. نطلب الإذن بالهبوط؟

. لديك الإذن الآن..

انقطع الاتصال فالتفت طه إلى المجموعة التي كانت تنصت للمحادثة، قائلا:

. الآن لدينا وسيلة مواصلات هيا بنا..

ضغط وليد عدة مفاتيح سريعا قبل أن يصدر أزيز خافت من آلة الطباعة وخلال نصف الدقيقة لفظت الآلة ورقتين تحملان صورة لمخ الفأرين طواهما ودسهما في جيبه وهو يهم بالانصراف إلا أن رغد قالت:

. معاذ.. ماذا عن ابننا معاذ؟

تدخل طه قائلا:

. يا سيدتي هو بمأمن هنا..

. لا يمكنني تركه هنا يجب أن يكون بالقرب مني..

استسلم الجميع لرغبتها، فوليد نفسه شعر بضرورة أن يكون ولده قريبا منه خاصة في هذه اللحظة...

. هل تعتقد أن الأمر سينجح؟

قالها نائب الرئيس وهو يحاول جاهدا تسلق جدار المدفأة بوضع قدميه على جدارين متقابلين بعد أن رفعه سعيد الذي أجاب قائلا:

. أتمنى ذلك..

كانت مدفأة القصر ذات طابع مميز فهي كانت ضمن تصاميم قصر هليوبوليس الذي صممه المهندس المعماري البلجيكي أرنست جاسبار وافتتح كفندق تابع لإحدى الشركات الفرنسية عام 1910 واهتم المصمم بقبة القصر التي ترتفع عن الأرض 55 مترا وقد أثث وقتها من أرقى الأثاث من نوعية لويس الرابع عشر ولويس الخامس عشر، وقد كان عند افتتاحه يطلق عليه فندق جراند هوتيل وقد ساهم في بنائه شركتان عملاقتان هما الأكبر في مصر وقتها، شركة ليو رولين وشركاه وشركة "بادوفا دينتامارو وفيرو"، فيما قامت شركة ميسس سيمنز آند شوبيرت في برلين بمد الوصلات الكهربائية والتجهيزات.

وكانت المدفأة إحدى تلك البهرجة التي اتبعتها الشركة الفرنسية الأم التي اعتبرته باكورة سلسلة فنادقها في شمال إفريقيا، فصنعت المدفأة كاملة من الرخام، وهذا بدوره سبب مشكلة في تسلق نائب الرئيس بحذائه الباهظ..

تنامى إلى أذنيهما صوت خطوات تدلف إلى القاعة لقد حضرت قوات الحرس الجمهوري عقب استدعاء سعيد لإجبار نائب الرئيس على اللجوء لمكان آمن..

كان الذهول مسيطرا على أفراد المجموعة عندما وجدوا القاعة خاوية وقد اختفى النائب ومعه سعيد اللذان كتما نفسيهما وتسمرا في مكانهما حتى لا يسمعهما أي من الأفراد..

بدأ العرق يتصبب من وجنتي النائب الذي تخطى منتصف عقده السادس وهو يشعر بقدمه تنزلق ببطء من على الجدار الرخامي، وبأسفله سعيد يتابع ذلك القدم المنزلق وهو يبتلع لعابه بصعوبة فحركة بسيطة قد يسقطان وعندها لن يتوانى الرجال من إطلاق وابل من النيران..

عدل نائب الرئيس من قدمه داخل فجوة المدفأة محاولا تثبيت تلك القدم وهو يرفع رأسه محاولا استكشاف المسافة الباقية لقد كانت طويلة حقا إلا أنه شهق فجأة شهقة جعلت الدماء تتجمد في عروق سعيد الذي أعتقد أن الرجال حتما قد سمعوها الآن رغم ارتفاعهم الذي فاق العشرة أمتار، فنظر إلى النائب مستفهما لكن جسد الأخير أعاق الرؤية..

لقد كان في هذه اللحظة جسم صغير يتحرك عبر جدار المدفأة يهبط بحركة متوترة إنه فأر يتجه إلى النائب مباشرة وقاطعتاه تسطعان في ظلام جوف المدفأة تنذران بالخطر..

اقترب الفأر بشدة من وجه نائب الرئيس حتى أن الأخير شعر بدغدغة لطيفة من شعيرات شوارب الفأر على وجهه.. كان وضع النائب غريبا، فقد صنع بجسده شكل النجمة الخماسية قدماه متباعدتان ليتكئ بهما على جداري المطفأة أما يداه فقد مدهما أفقيا لتخفيف الحمل عن قدميه اللتين تكادان تنزلقان..

لم يتمالك الرجل نفسه وهو يشعر بثقل الفأر وهو ينتقل إلى كتفه ثم يسير في خط متعرج إلى ظهره ومنه ينتقل إلى كتفه الآخر قبل أن يشعر بالدغدغة تداعب عنقه من الخلف وإبرتان تخترقانه، إنهما قواطع الفأر..

***

. بماذا تشعر الآن يا صديقي؟

قالها حسين موجها حديثه إلى حسني الذي ما زال مشدود الوثاق إلى مقعده، لكن الأخير رمقه بنظرة نارية دون أن ينبس ببنت شفه..

. أعلم إنك غاضب مني الآن ولكن صدقني بعد قليل ستشكرني وبشدة..

قالها حسين وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة وهو ينظر إلى حسني الذي ضيق من عينيه وهو يراقب الأول الذي أخذ يتجول ذهابا وإيابا وهو يردف قائلا:

. هذه الحياة تسير حسب الصدفة، صدقني لا شيء مخطط له كل شيء وليد الصدفة فمصادفة أن أكون عبقريا، وصدفة ألا أستطيع تحقيق أي شيء بتلك العبقرية لأنني مصادفة وجدت في بلاد مثل تلك البلاد فأكون كل ما أستطيع فعله صناعة علف للدجاج والبهائم! ! ومصادفة تكون أنت من يملك الملايين بل وتشاء نفس المصادفة أن تكون أنت من يخط اسمه في التاريخ بجوار اسمي!!

ثم ضحك حسين بشدة وهو يستدرج قائلا واقترب من حسني حتى لفحت أنفاسه وجه الأخير:

. حتى الصدفة بسخريتها جعلت أول من يعلن عن وجوده هم الفئران.. الفئران يا صديقي! !!

صمت للحظة وقال وهو يستغرق في تفكير عميق:

. لكن هذه المرة لن تكون للصدف أي دور فكل شيء سيتم وفق إرادتي..

ثم نظر مرة أخرى إلى حسني الذي بدا الارتياح على وجهه قليلا ولاحت ابتسامة خافتة على جانب شفتيه عندما قال الأول:

. أنت هذه الرغبة والمشيئة يا حسني و..

لم يكمل عبارته عندما انقض عليه حسني قابضا بأصابعه على عنقه بقوة، فجحظت عينا حسين وهو يرى تلك الابتسامة الساخرة على وجهه وأنامله تعتصر عنقه..

احتقن وجه حسين بشدة وهو يقاوم ليسمح ببعض الهواء للوصول إلى رئتيه اللتين كادتا أن تنفجرا وصوت مبحوح يصدر من حلق حسني قائلا بسخرية:

. وهذا في رأيك صدفة أم مشيئة؟!

صدرت حشرجة مكتومة من حسين وهو يقبض على معصمي حسني محاولا تخليص نفسه إلا أن الأخير كان أكثر قوة مما تخيل حسين الذي استسلمت يديه تقريبا، قبل أن يجد جسده ينطلق في الفراغ ليصطدم بالجدار على مسافة مترين فيسقط أرضا وهو يتنفس بصعوبة ويسعل بشدة في حين قال حسني بصوته المبحوح:

. أنت من صنعت قوتي وعقلي وأنت أول ضحاياي..

كانت نظرات الفزع جلية على وجه حسين الذي مازال يحاول تنظيم أنفاسه بين نوبات السعال وهو يقول بصوت متقطع:

. ك.. ي.. ف؟!

ضحك حسني الذي بدت عيناه لامعتين بشدة وقد فهم سؤال حسين بسهولة وقال:

. بجانب القوة أعطيتني هذا الذكاء لأحرر نفسي، أنت صاحب الفضل..

. ماذا تنوي.. أن تفعل بي الآن؟

اقترب حسني من حسين الذي أخذ جسده ينتفض بشدة وقال:

. في الحقيقة كنت أنتوي قتلك..

ثم صمت وهو يراقب الهلع على ملامح حسين، فيطلق ضحكة هزت أرجاء الغرفة وأردف قائلا:

. لكن الآن بعد أن جاء دواؤك بهذه النتيجة التي أستشعرها سأتركك فقط لتكون في خدمتي وحدي..

أنهى عبارته وانطلق في ضحكة شيطانية..

***

كاد نائب الرئيس يستسلم وهو يشعر بذلك الخيط الرفيع من الدماء ينساب على عنقه لكنه شعر بالإبرتين فجأة تغادران جسده وصوت صرير قوي للفأر قبل أن يسمع صوت ارتطام جسد الفأر بجدران المدفأة تبعها إطلاق نيران غزير..

كان سعيد قد استطاع مستخدما طوله الفاره في مد يده والقبض على عنق الفأر الذي قضم بقواطعه في عنق نائب الرئيس، ومع ضغط سعيد على عنق الفأر مما جعله يفتح فاه محررا عنق النائب من قاطعتيه قبل أن يلقي سعيد بالفأر بقوة إلى أسفل..

بالأسفل سمع الحرس صوت صرخة النائب ومع صوت ارتطام الفأر بالأرض أسفل المدفأة أطلقوا على الفأر النيران مما جعل أشلاء الكائن الصغير تتطاير في كل الاتجاهات، وفي اللحظة نفسها اختل توازن سعيد ليهوى فجأة جاذبا معه النائب كردة فعل تلقائية عندما تمسك بملابس النائب ليأخذه أثناء رحلة السقوط وما إن ظهرت أقدام الأول عبر فتحة المدفأة حتى عاد وابل النيران الذي أسقط سعيد جثة هامدة عندما صرخ أحد الحرس قائلا:

. سعيد..

توقف الجميع من حسن حظ النائب الذي سقط هو الآخر في هذه اللحظة فوق جثة سعيد..

جرر الحرس بسرعة لتخليص النائب من داخل حوض النيران الذي سقط فيه، في حين نظر النائب إلى سعيد بحسرة وهو يرى بركة الدماء المحيطة به فيعتصر شفتيه ألما..

. سيدي ماذا يحدث هنا؟

قالها أحد الحرس الذي نظر إلى النائب وحارسه المسجي غارقا في دمائه.

رد النائب والألم يعتصر فؤاده:

. لقد قتل برعونتي!

تبادل جميع الحرس النظرات المتعجبة وهم لا يفهمون عما يتحدث النائب، قبل أن يلتفت أحدهم وقد كان قريبا من سعيد يتحسس جسده ويقول:

. مات..

دمعة ثائرة فرت من عيني نائب الرئيس بالرغم منه لم يعرف الحرس أسبابها..

ساد صمت مهيب للحظات قبل أن يقطعه صوت قوي قادم عبر المدفأة، فنظر الضابط القريب من النائب قائلا:

. هل ما زال أحد بالمدفأة؟

هز الأخير رأسه نفيا، فتقدم الضابط واقترب برأسه ينظر داخل التجويف وفجأة صرخ بشدة وهو يتراجع مترنحا ليظهر وجهه وذلك

الفأر قابضا بمخالبه على وجهه والدماء تسيل بغزارة من موضع عينيه، كاد أحدهم وقد تغلب على المفاجأة سريعا أن يقترب من زميله لتخليصه لكن الجميع تجمدوا بأماكنهم مع ذلك السيل العارم من المخلوقات الرمادية التي ظهرت فجأة عبر المدفأة!!

مئات من الفئران في صفوف تتسلق جدار المدفأة الخارجي وبعضها ينتشر بسرعة على الأرض في حين تسلق ثلاثة فئران بسرعة جسد الضابط الذي تعالى صراخه والفأر يلتهم جلد وجهه فيصدر صوت مضغ جعل الدماء تتجمد في عروق الرجال قبل أن يسقط الضابط وكومة من الفئران تغطي جسده..

أزيز رصاصة في المكان يتردد صداها تبعها وابل كثيف من الطلقات لتطاير عشرات القطع من الفئران متناثرة الأشلاء في حين أن السيل لم ينقطع عبر المدفأة ونائب الرئيس يشعر بغثيان شديد وهو يرى الفئران تلتقط أشلاء إخوانها وتأكلها بوحشية ووابل آخر قد هاجم جثة سعيد وتخرج أحشاءه وتجذبها الفئران ببشاعة، وثقوب في جسد الضابط الذي هاجمه الفأر تتحول عبرها الجرذان..

بعد ذلك الوابل الكثيف من الأسلحة سريعة الطلقات سمع الرنين معدني منبئا بنفاد الذخيرة واحدا تلو الآخر لتتوقف الفئران فجأة عن التهام جثث أصحابها والضابطين وتنظر إلى الرجال الذين جحظت عيونهم بشدة، فكأنما الفئران تعرف أن ذخائرهم قد نفدت وتستعد الآن للهجوم...

***

ضغط طه شفتيه وهو يستمع إلى العميد صلاح المنشاوي من المخابرات العامة في ركن أحد المختبرات الشاسعة داخل مبنى الهيئة العامة للخدمات البيطرية..

كان كل من وليد ورغد وبجوارهما الطفل معاذ الذي استغرق في مشاهدة بعض أقفاص الحيوانات الريفية التي وضعت لإجراء التجارب داخل "إدارة التحليل والتراكيب الدوائية"، وهو القسم الذي اختاره وليد للبدء منه، كان الأخير وزوجته يسترقان النظر إلى ذلك الحديث الجدي الذي استغرق فيه كل من الرجلين هناك، خاصة عندما كانت دهشتهما حين وصولهما بواسطة الهليكوبتر العسكرية ووجود العميد صلاح بانتظارهم وما إن دلفوا بداخل المختبر حتى ابتعد الرجلان جانبا وأخذا في حديث طويل جدا وتعبيرات وجههما تتأرجح ما بين الجدية والغضب والحزن أحيانا..

في هذه اللحظة دلف إلى المختبر خالد وبحث بعينيه عن الجميع وكان وليد ورغد أول من رآهما فاقترب إليهما وهو يقول:

. الفئران خالية تماما من أي فيروسات غريبة أو أمراض معدية باستثناء بعض الطفيليات الطبيعية المعتادة عند مثل هذه القوارض؟

أنهى خالد حديثه وناول وليد ورقة مطبوعة تحمل بالأعلى شعار "الإدارة العامة للطب الوقائي"، وكان خالد قد توجه مباشرة إلى معامل الطب الوقائي للبحث عن أي نتائج تشير إلى وجود أمراض فيروسية قد تكون قد تسببت في تلك الطفرة الجينية التي أصابت الفئران.

. بهذا يظل أمامنا أمل وحيد بتحليل أنسجة الفئران ربما نصل إلى شيء..

قالتها رغد في حين ظل وليد يراقب من بعيد حديث العقيد والعميد فلفت ذلك انتباه خالد الذي نظر بدوره إلى الركن الذي ابتعدا فيه الرجلان قبل أن يقول متسائلا:

. ترى من ذلك الرجل الذي استحوذ على سيادة القائد بهذه الطريقة؟!

تبادل وليد ورغد النظرات المتعجبة والأول يقول:

. ألا تعرفه؟

هز خالد رأسه نفيا فضحك وليد بالرغم منه وقال:

. أليس هذا غريبا أن تكون ضابطا ولا تعرف ضابطا كبيرا مثله!

نظر خالد إلى صلاح وقد عقد حاجبيه وقال:

. هل هو ضابط بالشرطة؟!

ضحك وليد مرة أخرى وقال:

. إنه رجل مخابرات!

. أوه تبا لهم الآن علمت سر هذا الاحترام فهؤلاء الحمقى يمتازون بنفوذ بلا حدود..

قطعت رغد حديثهما قائلة:

. أعتقد أن هرمون " التستستيرون" رغم مسئوليته عن العنف إلا أنه لا يمكن أن يكون هو السبب لهذا التطور الجيني الذي نحن بصدده؟!

انتبه وليد إلى زوجته وهز رأسه موافقا وقال:

. يجب الحصول على العينات بسرعة!

هنا لاحظوا اقتراب طه وصلاح إليهم بخطوات متثاقلة والأول يقول:

. لدينا أخبار سيئة للأسف!

جاءت نبرة العقيد المتحسرة لتجذب انتباه الجميع لكن صلاح تدخل قائلا بصوت أقوى:

. هذه المعلومات سرية جدا لكن الآن أنتم جزء من الفريق ويجب أن تعلموا الحقيقة، فربما تكون حافز قوي للإسراع في العمل وإنقاذ ما يمكننا إنقاذه..

. ماذا هناك سيدي؟

قالتها رغد بتوتر شديد وهي تنظر تجاه الطفل معاذ متأكدة إنه بعيد عنهم..

. لقد قتلت الفئران نائب السيد الرئيس وعددا من حراسه، كما أن القصر الرئاسي تعرض للغزو..

رفع الثلاثة حواجبهم في دهشة وفزع مختلطين في حين أردف صلاح قائلا:

. ليس هذا فقط، بل إن الغزو قد اكتسح معظم القاهرة والمدن المحيطة بشكل جعل المواطنين يحتشدون عند المنافذ للهرب من هذا الجحيم بعدما قضت الفئران على كابلات الاتصالات وامتدت قوارضها إلى محطات الكهرباء!

كان ما يقوله العميد تطورا خطيرا في الأحداث..

. وماذا عن بقية المدن جنوبا وشمالا؟

سأله وليد، فهز صلاح رأسه وعض شفتيه قائلا:

. لقد بدأ الأمر هناك، فيبدو أن حواجزنا لم تنجح في منع الفئران!

قال خالد:

. هذا متوقع سيدي فالفئران تتجول عبر المجارير والأنفاق مما يجعل من المستحيل رصدها بسهولة..

. والحل؟!

قالها طه الذي ظل صامتا معظم الوقت، فقال وليد:

. هناك خطوة يجب اتخاذها وبسرعة

نظر الجميع إليه في حين قال مردفا:

. يجب الوصول إلى المصدر بأسرع وقت فهناك حتما سنجد كل الإجابات التي نبحث عنها..

نظرت إليه رغد فزعة وقالت:

. لكن الخروج الآن شديد الخطورة؟!

قال وليد مطمئنا:

. لا داعي للقلق..

ثم نظر إلى العميد والعقيد وقال:

. هل استطعتم تحديد منطقة البداية؟

هز صلاح رأسه قائلا:

. نعم إن أغلب الحوادث الأولى تعود إلى منطقة ريفية بالقرب من محل سكنك السابق، على حدود القاهرة.

ابتسم وليد بارتياح قائلا:

. لنبدأ الآن..

ثم نظر إلى رغد قائلا:

. أما أنتِ يا عزيزتي ستظلين هنا لتبلغيني بنتائج العينات..

. ولكن كيف وكل الاتصالات مقطوعة؟

قال صلاح:

. بسيطة سأوفر لكما جهازي لاسلكي بعيدا المدى.

في هذه اللحظة اقترب أحد العاملين بالطب البيطري وبيده قفازين مطاطيين وكيس مغلق بشكل جيد شفاف فبدا من داخله مشهد لجثة فأر مقززة..

. رجاء لا داعي أن يراها الطفل.

كان طه هو صاحب هذه العبارة مما جعل رغد ووليد يبتسمان، في حين حرك رجل البيطري الكيس خلف ظهره وابتعد به حتى وضعه على طاولة مختبرية كبيرة في نهاية المختبر بالقرب من لوح من المعدن وعدة أدوات للتشريح ومجهر..

كان المختبر قد تم إخلاؤه قبل وصولهم إليه ولم يتبق سوى الدكتور علاء الطبيب البيطري الذي أحضر العينة ليقدم يد العون في مجال تخصصه..

بالخارج لم تكن الهليكوبتر قد غادرت فالطيار لم يكن ذو وجهة يستطيع الذهاب إليها، كذلك لا مهام مكلف بها لكنه تعجب عندما اقترب منه العميد صلاح الذي أبرز له بطاقة تعريفه قبل أن يطلب منه استخدام لاسلكي الطائرة عبر موجة خاصة أدخلها العميد بيده..

***

مرت سويعات قلائل قبل أن يكون مسئولو الطب الوقائي والحجر الصحي بمساعدة أفراد القوات المسلحة قد أتموا بناء ذلك المخيم

البلاستيكي المعزول كليا ممتدا على قطعة أرض مجرفة في انتظار وليد والعميد صلاح الذي طلب الأمر عبر لاسلكي الطائرة ليتم التنفيذ فورا، ورغم أن الأمر جديد على الجهات المصرية لكنه لم يكن مستحيلا خاصة مع حالة الطوارئ القصوى التي أعلنت في كل الوزارات والهيئات، وما تنقله أجهزة الإعلام في كل مكان!!

أما رغد التي التقطت بضعة أجزاء من الفأر النافق عبر اللاقط الدقيق لتضيف إليه من داخل قارورة زجاجية ذات عنق طويل ضيق، بعض المواد المختلفة الألوان وبجوارها داخل مختبر إدارة التحليل والتراكيب الدوائية بهيئة الطب البيطري وقف علاء يتابع عمل رغد التي أخذت تهز القارورة ثم تتركها من يدها متجهةً إلى الجانب الآخر من المختبر لتلتقط إناء زجاجيا أسطواني الشكل به بعض المواد نفاذة الرائح.

تابعها علاء في صمت مبهورا بتلك الدقة التي تتعامل بها رغد مع المواد الكيميائية وسرعتها في استخدامها واستخدام المعدات المتاحة!

استغرقت رغد ما يقرب من الساعتين متصلتين في ذلك العمل قبل أن تتنهد بارتياح قائلة:

. الآن يجب علينا الانتظار بضع ساعات حتى نخرج بنتيجة التفاعلات..

اقترب خالد منهما والذي كان يتقن دور جليسة الأطفال في مجاراته لمعاذ الذي كان يطلق ضحكاته الطفولية فكانت رغد بين فينة وأخرى تلقي نظرة مع ابتسامة خافتة مطمئنة على صغيرها..

. هل من جديد؟

قالها خالد لرغد التي ألقت بجسدها المنهك على أحد المقاعد قبل أن تجيب:

. ليس قبل بضع ساعات.

قال علاء الذي التزم الصمت لفترات طويلة:

. ألم تكونوا أية نظريات حول الوضع؟

قالت رغد:

. كل ما استطعنا اكتشافه حتى الآن هو زيادة في نسبة هرمون " التستستيرون" الذكوري ومعها تغيرات في عملية التفكير والذاكرة مما ينبئ بالتعامل مع حيوانات شديدة الذكاء والعدوانية..

تنهدت رغد بعمق قبل أن تقول مردفة:

. وتظل الأسئلة العالقة كيف حدث ذلك؟ وكيف بهذه السرعة؟ ولماذا تهاجم الفئران؟!!

كانت كلها أسئلة محيرة إلا أن علاء عدل من نظارته ذات الإطار الذهبي وهو يقول:

. أعتقد أن هناك تفسيرات منطقية للسؤالين الأخيرين ربما فاتتكم؟

نظرت إليه رغد وخالد بتعجب فقال خالد مندفعا:

. هات ما عندك رجاء.

جذب علاء مقعدا قريبا جلس عليه وهو يشعل سيجارة بعد أن عرض على خالد الذي اعتذر بعدم التدخين، جذب علاء كمية كبيرة من النيكوتين إلى أحشائه وقال ليخرج صوته عبر سحابة من الدخان:

. لا يمكنني معرفة كيف حدث ذلك حقيقة! لكن هناك أمر هام إذا كان عقار "التستستيرون" موجود وإذا ربطنا الأمر بحادث السيارة

المحملة بمخلفات إحدى المزارع والتي تحدثت عنها أغلب وسائل الإعلام تقريبا، وإذا قلنا إن الهرمون يستخدم في صناعة الأعلاف الحيوانية فإن للأمر علاقة بتلك الأعلاف بشكل أو بآخر..

تبادل خالد ورغد النظرات الحائرة، فما يقوله علاء منطقي خاصة أنه ذو خبرة في هذا المجال، كما أن أمورا كثيرة تدل على صحة ما يقول فبداية الهجوم قادم من منطقة تعج بالمزارع الحيوانية ومزارع الدواجن! !

. أما سر السرعة فالأمر بسيط جدا، وكل ما يلزم هو معرفة بسيطة بدورة حياة الفئران، فالفئران تتوالد بشكل شديد السرعة حيث إن الفأر يكون مستعد للتزاوج في عمر 55 يوما فقط وقد تستعد الإناث أحيانا للعملية الجنسية من سن 25 – 40 يوما علما بأن الفأرة الواحدة تضع من 40 إلى 60 مولودا في العام مما يعني أن فأرة واحدة يمكنها أن تصنع قطيعا مكونا من 45 فأرا خلال 50 يوما فقط فإذا وضعت 6 جرذان في المرة فإنها بعد 50 يوما سيضع كل واحد منها 6 ومع احتمالات الموتى والذكور ينتجون 45 فأرا في أقل من شهر ويمكنك القياس على ذلك لمدة سنة واحدة مع العلم أننا نتعامل مع أم واحدة فما بالك بعدد الفئران الموجود أصلا!!

كانت عيون رغد وخالد تجحظان بشدة وهما يسمعان هذا الحديث من الرجل، فهو بمنتهى البساطة ينبئ عن ملايين الملايين من الفئران الآن تنتشر وبسرعة خارقة تفوق التصور..

نفث علاء دخان سيجارته مرة أخرى وقال:

. بالطبع لم أضع في الاعتبار ظهور الهرمون الذكري الذي حتما سيكون له تأثير مباشر على الخصوبة لديها مما قد يزيد معدل التوالد ربما للضعف، نضيف إلى ذلك تعدد أنواع الفئران وهي تصل إلى 38

نوعا من الفئران، متواجد منها هنا ما يقارب النصف تقريبا ورغم اختلافات ظاهرية بينها إلا أن هناك الكثير من الصفات المشتركة بينها ومنها سرعة العملية التناسلية.

سحق علاء سيجارته أسفل حذائه وهو يتابع نظرات الدهشة والذعر في وجهي رغد وخالد والأخير يلتقط دون وعي منه علبة السجائر من جوار علاء ويشعل سيجارة يسعل بعدها بشدة قبل أن يهدأ السعال مع حلقات الدخان المتصاعدة وكأنه يحاول قتل توتره أو قتل نفسه كلاهما سواء في هذه اللحظة، فيستدرج علاء قائلا:

. الشق الأخير من السؤال – لماذا تهاجم الفئران؟ . الفئران تعاني التكدس السكاني الآن وهي في الحقيقة كانت تحل هذه المشكلة كما حدث بالسويد مثلا بطريقة عجيبة وهي الانتحار الجماعي في ظاهرة تشبه تلك التي نعرفها عن الحيتان! وإذا أخذنا في الاعتبار تلك التغيرات البيولوجية التي ذكرتماها منذ قليل فيبدو أن الفئران الذكية وجدت أن الحل الأفضل هو خلق أماكن جديدة تصلح للسكن والغذاء.

ساد الصمت بين الجميع وفي رؤوسهم يدور سؤال واحد "إلى أين سيقودنا هذا؟"

***

الفصل الثامن

لم يشعر آسر الذي اتكأ بجبهته على طاولة معدنية ويبدو أنه يغط في نوم عميق أو يعطي لذهنه بعض الراحة التي افتقدها خلال أيام متواصلة من العمل داخل مختبر قسم الكهرباء بكلية الهندسة جامعة القاهرة، بالباب المكون من درفتين وهو يفتح مصدرا صريرا قويا تردد صداه في أروقة الكلية الخاوية على عروشها حتى من الحرس، ظهر شاب طويل القامة نحيل الجسد والوجه يرتدي عوينات طبية صغيرة، كان وجهه شاحبا بشدة كأنه عانى الأمرين قبل وصوله إلى هذا المكان..

. آسر أين أنت؟

قالها الشاب القادم بصوت بدا رفيعا مائعا إلى حد كبير، تجول بعينيه بحثا عن صديقه حتى وجده متكوما على أحد المقاعد دافنا جبهته بين ساعديه ويغط في نومٍ عميق!

هز الشاب رأسه أسفا وهو ينظر إلى صديقه المجهد قبل أن يمد راحة يده برفق ليضعها على ظهر آسر الذي انتبه فجأة فرفع رأسه وعيناه شبه مغلقتين وجبهته حمراء بلون الدم من أثر اختزان الدماء عند نقطة ارتكازه إلى ذراعيه ويقول بصوت متهدج:

. رامي؟!

ابتسم رامي ابتسامة هادئة وقال بصوته الرفيع:

. صح النوم..

حاول آسر الابتسام لكنه لم يستطع مع ذلك الإجهاد الواضح معالمه على وجهه، لكنه قفز من مكانه فجأة هاتفا:

. تبًا..

وانطلق إلى جهاز متوسط الحجم أبعاده تتخطى المترات الثلاثة في مترين أو أقل قليلا عبارة عن مكعب حوله لفات من سلك نحاسي يعلوه جسم رفيع يشبه إلى حد كبير هوائي السيارات وفي قمته قطعة معدنية لامعة مثبتة أفقيا، مد يده بسرعة وضغط زرا دائريا أحمر اللون في قاعدة الجهاز ليتوقف ذلك الأزيز الخافت، ومؤشر مثبت على الطاولة ممتد بسلكين ذات لونين الأحمر والأزرق، يتحرك في اتجاه الرقم صفر معلنا توقف الجهاز عن العمل..

تنهد آسر ارتياحا قبل أن ينظر مرة أخرى إلى رامي متسائلا:

. لماذا أتيت إلى هنا وكيف اجتزت أمن الكلية؟

رفع رامي حاجبيه الرفيعين بدهشة وقال:

. منذ متى وأنت هنا؟

مط آسر شفتيه وقال:

. لا أدري تحديدا فأنا أعمل على هذا الجهاز منذ وقت طويل حتى غلبني النوم كما رأيتني!

. لقد أخبرتني والدتك بغيابك منذ ثلاثة أيام فبحثت عنك حتى تذكرت هذا الجهاز وجنون العبقرية فاعتقدت أنك حتما ستكون هنا!

. ثلاثة أيام؟! حقا لقد استغرقت في العمل بشدة..

ثم اكتست ملامحه بآيات التعجب فأردف قائلا:

. ولكن لماذا لم تتصل بي والدتي أو أنت؟!

جذب رامي مقعدا ألقى بجسده عليه وقال:

. يا سيادة العبقري ألم تعرف أن جميع الاتصالات مقطوعة كذلك التيار الكهربي؟!

تذكر آسر للحظة كيف أن الكهرباء قد انقطعت فجأة منذ ساعات وأنه يعمل على طاقة مولد الكهرباء المعد للطوارئ..

أردف رامي قائلا:

. وأعتقد أيضا لا تعرف بتلك الكارثة التي حاقت بالبلاد؟

نظر إليه آسر مرتاعا وقال:

. أي كارثة؟!

تنهد رامي بعمق وقد شعر بصدق آسر فقرر أن يروي لصديقه ما حدث خلال اليومين الفائتين، وكان ما يرويه رامي على مسامع آسر أكثر غرابة من الخيال جعل الأخير يشعر بقشعريرة تسري في جسده بشدة، وأنفاسه تتلاحق بشدة..

***

انتشر رجال الحجر الصحي والطب الوقائي في كل مكان في دائرة قطرها أكثر من 500 متر كاملة لجمع العينات وكان من بينهم كل من وليد والعميد صلاح والعقيد طه يتجولان بحرية أكثر حيث كانوا مما يبدوا عليهم يبحثون على شيء آخر مع أربعة رجال مدججين بالسلاح..

ودون وعي منهم تجاوزت البعثة الصغيرة حدود دائرة البحث حتى وجدوا أنفسهم أعلى تلة صغيرة من السماد الطبيعي الجاف وهنا أشار أحد الرجال المدججون بالسلاح قائلا:

. سيدي في هذه النقطة تحديدا انقلبت السيارة المحملة بالمخلفات بعد مهاجمة الفئران.

كانت السيارة المحطمة ما زالت موضعها منقلبة رأسا على عقب وحولها تناثرت عدة أجولة ممزقة اقترب منها وليد وقد دس يده داخل قفاز مطاطي من تلك المستخدمة في الأغراض الطبية وأخرج من جيبه كيسا بلاستيكيا شفافا وأداة صغيرة تشبه الملعقة جمع بها بعض تلك الفضلات قبل أن يتأكد من غلق الكيس جيدا ويناوله لأحد الجنود قائلا:

. يجب أن يصل بسرعة إلى دكتورة رغد..

هز العميد صلاح للجندي رأسه موافقا، فعاد الجندي إلى حيث وقفت الطائرة الهليكوبتر أما الحشد الصغير فقد التفت وليد للجندي الذي أخبرهم بحادث السيارة قائلا:

. هل استطعتم تبع أي مزرعة تلك المخلفات؟

نظر الجندي إلى العميد صلاح كأنه ينتظر الإذن للحديث، فهز الأخير رأسه مرة أخرى بمعنى "تحدث"..

. نعم يا سيدي أنها تابعة لمجموعة مزارع حيوانية وداجنة على مسافة قريبة من هنا ملك لرجل الأعمال الشهير حسني أيوب..

قال وليد للجندي:

. هل تم التحقيق مع هذا الرجل حسني؟

مط الجندي شفتيه بمعنى عدم معرفته إلا أن العميد صلاح تدخل قائلا:

. للأسف عند زيارة المختصين للمزرعة لم يكن موجود بها ولقد أخبرنا بعض العمال الذين لم يفروا بعد أنه مختف منذ عدة أيام، وبالطبع الموضوع لم يلق اهتماما كبيرا خاصة بين تلك الأحداث المتصاعدة..

قال العقيد طه متدخلا:

. هل تعتقد يا سيد وليد أن علينا زيارتها؟

صمت وليد لحظة قبل أن يقول:

. بالطبع علينا زيارة مزارعه لكن لننتظر نتائج العينة التي أرسلناها أولا لنعلم جيدا ما نحن بصدد مواجهته..

ساد الصمت والجميع يأفلون عائدون إلى معسكر الحجر..

***

كادت قصبة حسين الهوائية أن تنكسر تحت وطأة ضغط حسني وتلك الابتسامة الشيطانية على شفتي الأخير وزبد عجيب يسيل من بين شفتيه..

كان حسين قد أعد لكل شيء عددته تماما حتى أعقد الأمور التي لم يكن يتوقع حدوثها، فرغم خطبته الرائعة عن المصادفة إلا أنه ليس من ذلك النوع الذي يترك شيئا للظروف مهما يكن بسيطا، وبمراقبة بسيطة للفأر الضخم بالخارج داخل صندوقه الزجاجي وكذلك المسخ الذي صنعه، كان يعلم أن الموضوع مسألة وقت حتى يكتشف ذكاء حسني الجديد طريقة تجعل السيطرة عليه عسيرة جدا ولهذا كان قد أعد عدته فمد يده داخل جيب معطفه ليخرج شيئا أسود صغيرا يخرج منه طرفين معدنيين مدببين وبسرعة البرق، فعندما أخبره حسني أنه لن يقتله كان قد خفف الضغط عن عنقه

مما سمح بنسبة ضئيلة جدا من الأوكسجين بالمرور إلى عقله فلم يفقد وعيه ومنها استطاع الوصول للصاعق الكهربي الصغير في جيب معطفه ويغرس طرفيه في عنق حسني ويضغط زر التشغيل ليفرغ كامل شحنته في جسد حسني الذي أفلته واهتز جسده البدين بشدة من أثر التيار الذي ضرب أوصاله فيزداد الزبد المتدفق من بين شفتيه ويسقط مغشيا عليه..

تحسس حسين عنقه بألم وأنفاسه تتلاحق بسرعة وهو ينظر إلى جسد حسني المسجي عند قدمه والزبد ما زال يخرج من بين شفتيه قبل أن يبصق احتكارا لذلك الجسد ويميل عليه ليتحسس أوردته متأكدًا من استمرار النبض وعندما عرف بأنه ما زال على قيد الحياة تنهد بارتياح وغمغم قائلا:

. لولا أنني ما زلت أحتاج إلى قطعة الخردة في رأسك لقتلتك الآن، لكن للأسف مازلت في حاجة إليك كحيوان تجارب..

سحب حسين من أحد الجدران سلسلة حديدية غليظة لحم في طرفها حلقة تشبه السوار، ثم اقترب من جسد حسني البدين وجذبه من قدمه حتى قربه من الجدار قبل أن يلف ذلك السوار الفولاذي حول رجله ويتأكد من غلق القفل جيدا، وكأنه يحدد مسافة الحرية التي يتيحها القيد وكانت لا تتخطى الخمسين سنتيمترا تقريبا ولهذا وضع لنفسه علامة كمنطقة آمنة وهناك جلس على مقعد مريح ينتظر حسني أن يستعيد وعيه وفي هذه اللحظة سمع صوتا جعل الدماء تتجمد في عروقه تماما..

***

. بروتين جي أيه بي 43..

نطقتها رغد بعصبية وهي تستدير بمقعدها وتنظر إلى كل من علاء وخالد الذين تابعاها بانتباه وهي تقول مستدركة:

. وهو بالضبط ما يفسر ذلك النشاط الزائد في منطقة hippocampus الحويصنة الموجودة بالمخ لدى الفئران..

. لكنكِ والدكتور وليد قلتا إنه لم يتم اكتشاف كيفية استخدام عقارات لتنشيط المنطقة!؟

قالها خالد متعجبا في حين قالت رغد وعلى وجهها ابتسامة شاحبة:

. لم نقل هذا تحديدا يا سيد خالد بل قلنا إن التجارب الوراثية لا يمكن تطبيقها على البشر وبالتالي ترك الأمر برمته لشركات العقاقير وأنا بالفعل حضرت لفترة تطوير بعض البروتينات التي تعمل على هذا وأن كنت لم أعرف نتائج التجارب لتركي العمل حينها..

قال علاء متعجبا:

. أفهم من ذلك أن عقارًا ما وصل إلى تلك الفئران فجعل منها فئرانا أكثر ذكاء وعقارا آخر دفعها للعنف؟!!

هزت رغد رأسها موافقة، فاستدرج خالد قائلا:

. وكيف يمكن أن يصل هذا العقار إلى كل هذه الفئران؟

قالت رغد وكأنها تتحدث في أعماقها:

. هذا ما على وليد ومن معه الإجابة عليه الآن..

ساد صمت لدقيقة كاملة قبل أن يصدر أزيز خافت من جهاز اللاسلكي الموضوع على إحدى الطاولات فالتقطه خالد ليسمع صوت الطيار يطلب الإذن بالهبوط..

عاد خالد إليهما قائلا:

. لقد أرسل لنا الدكتور وليد عينة ضرورية للتحليل فورا..

شعرت رغد بقشعريرة تسري في جسدها وعلاء ينطلق خارجا لاستقبال العينة من الطيار..

ما هي سوى ثلاث دقائق على الأكثر حتى فتح الباب مرة أخرى ليظهر علاء حاملا ذلك الكيس البلاستيكي بيده ويناوله إلى رغد التي رفعته إلى وجهها ونظرت إليه باشمئزاز في حين قال علاء:

. أعتقد أنه فضلات لأحد المزارع..

نظرت إليه رغد في صمت قبل أن تنطلق إلى بضع أجهزة تفرغ من محتويات الكيس مضيفة بعض المواد وتجري بعض المعادلات الكيميائية..

وعيناها تتسعان بشدة تكادان تقفزان داخل الآنية الأسطوانية أمامها.....

***

. وأين أمي وأخي الصغير الآن؟؟

قالها آسر صارخا بعدما سمع من صديقه رامي قصة هجوم الفئران كاملة، مط الأخير شفتيه قائلا:

. لا أعرف حقيقة أين هما الآن لأنهما حتما قد انضموا إلى النازحين خارج العاصمة، وأعتقد أن عليك الآن أن تلحق بهما فالتواجد هنا خطير حقا!

أمسك آسر بذراعي صديقه بقوة قائلا:

. رامي نحن أصدقاء منذ الطفولة، وأعلم جيدا أنك تعتبر والدتي وأخي أسرتك، لهذا أطلب منك العودة والبحث عنهما والبقاء معهما حتى تطمئن عليهما؟

نظر إليه رامي متعجبا وقال:

. وماذا عنك؟!

أشار آسر إلى الجهاز الصغير قائلا:

. سأبقى لأكمل ما بدأت فلقد وعدت أمي أن أجد حلا..

. أنت مجنون حقا أي حل وأي جهاز، أنني أخبرك بدمار كامل وخطر داهم يحيط بالجميع وأنت تهتم بـ"تأتاة" أخيك الصغير؟!

قال آسر بحزن:

. أنت لا تعرف ماذا يعني هذا لأمي؟ لو ترى تلك الدمعة الحبيسة في عينيها وهي تسمع يس يتحدث بصعوبة وهي لا تكاد تفقه شيئا مما يقول؟! وتزداد حسرتها بعدما فشل الطب في إيجاد حل لتلك المشكلة..

قال رامي بعصبية وسخرية ممتزجين:

. وأنت يا باشمهندس ستصنع ما عجز عنه الأطباء؟!

. لقد اقتربت فعلا، وليس معنى أنني مهندس أنني بعيد عن الطب؟ مطلقا، فأغلب أجهزة الأطباء الحديثة هي أجهزة هندسية في الأساس مبنية على أسس فيزيائية لا علاقة لها بالبيولوجي..

. اسمعني آسر أعتقد أن والدتك ستكون أشد حسرة وحزنا إن فقدتك أنت فهيا بنا نرحل من هنا فورا..

قال آسر وهو يتراجع لخطوتين:

. لا تعتقد أنني سأترك ما بدأت، كما أنني في الحقيقة لا أصدق كل هذا الهراء حول الفئران كما تذكر فها أنت ترى من حولك المختبر أبوابه على مصراعيها منذ ليال ومع ذلك لم أر فأرًا واحدًا!!

التفت رامي حوله وكأنه يتأكد فعلا من خلو المكان من الفئران قبل أن يفغر فاه مندهشا ويقول:

. حقا، أنني لم أر أيا منها منذ اقتربت من المبنى رغم أنني عانيت الأمرين حتى استطعت الوصول إلى هنا من عشرات الفئران تطاردني تارة وتطارد آخرين تارة أخرى، كما أن وسائل الإعلام تؤكد إن الفئران تقريبا لم تترك مكان لم تصله حتى قصر الاتحادية..

. هذا عجيب حقا!

قالها آسر وهو مأخوذ مما يسمع وفجأة دوى في عبر أروقة الكلية صوت حاد رفيع عرفاه من فورهما أنها مئات الفئران تقترب وبسرعة.....

***

. هل استطعتم إيجاد أية طريقة للإيقاع بتلك الفئران؟!

قالها وليد لذلك الرجل المتوسط الطول أصلع الرأس الذي وقف أمامه ليعدل من نظارته الواقية قبل أن يمط شفتيه قائلا:

. لقد قام رجالي بزرع الفخاخ التقليدية المدعومة بالطعوم المستخدمة عادة لكن دون جدوى تذكر، كأنما نتعامل مع بشر أذكياء!!

قال العقيد طه متسائلا لأخصائي مكافحة الآفات:

. وماذا عن السموم؟

هز الرجل رأسه يائسا:

. لم نترك أي مكان به كثافة لتلك الفئران التي نعرفها من مخلفاتها، إلا ونصبنا الفخاخ ونثرنا كميات من الحبوب المسمومة المتعارف عليها لكننا لم نجد حتى جثث الفئران الصغيرة الحجم كما هي العادة!!

قال وليد متعجبا:

. كما هي العادة؟!

هز الرجل رأسه موافقا وقال:

. إن الفئران كائنات ذكية بطبيعتها..

ثم ابتسم وهو يتنحنح قائلا:

. بالطبع ليست كما نواجه، لكنها عموما ذكية وتكتشف السموم بسرعة عن طريق دفع أصغر وأضعف أفراد المجموعة للأكل أولا كي يظهر أثر السم بسرعة عليه إن وجد، ولهذا في العادة ننثر نفس نوعية الطعام لفترة دون سم حتى تطمئن الفئران وتأمن للطعام بعدها يمكننا النيل منها بالطعام الملون**، وهي إضافة ألوان لتحديد الطعام المسموم معتمدين على عجز الفئران عن تمييز الألوان، وهنا كانت المفاجأة أننا لم نجد أي أثر لتلك الفئران بالقرب من فخاخنا وطعومنا وكأنها تفهم وتعي ما ننوي فعله!

تنهد وليد قائلا:

. هذا ما توقعته بالفعل فنحن نكاد نتعامل مع مخلوقات عاقلة جدا..

نظر إليه العميد صلاح قائلا:

. وما الحل الآن، أننا ندور في حلقة مفرغة من الدمار، ولا يمكننا السيطرة على الوضع؟

فكر وليد برهة قبل أن يقول:

. يجب علينا انتظار التحاليل وتحديد المادة المسئولة عن المشكلة وعندها فقط يمكن أن نرى ما يمكننا فعله؟

هنا توتر رجل المكافحة وتنحنح وهو يمسح صلعته البراقة ويقول مترددا:

. أعتقد إن مكاننا هنا خطر جدا وسرعان ما ستتجه إلينا الفئران خاصة مع حاسة شمها القوية..

هز وليد رأسه موافقا وهو يقول:

. أنا واثق من هذا، لذا علينا الانسحاب بسرعة بعد زيارة المزرعة فربما هنالك نجد مفتاح اللغز..

ساد الصمت المطبق والقلوب كلها ترتجف بين الضلوع والأنظار شاخصة إلى السماء طالبة الرحمة..

***

استرخى طيار الهليكوبتر على مقعد القيادة والنعاس يداعب عينيه بقسوة.. فهو لم ينل أي قسط من النوم منذ عدة أيام وإنذار حالة الطوارئ الذي تلقاه كما كل أفراد أسلحة الجيش، لكنه منذ مدة وقد انقطع اتصاله بالقيادة، لكن طبيعته العسكرية المحاربة جعلته يضع نفسه فورا في أول ميدان قتال قابله، ورغم أن دوره القتالي لا يتخطى كونه "ساعي بريد" أو سائق مركبة، إلا إنه يشعر في قرارة نفسه بأهمية دوره..

كانت الطائرة تقبع هادئة بعد توقف هدير محركاتها، أعلى سطح مبنى الطب البيطري، المكان الوحيد الذي استطاع الهبوط عليه..

أسبل الطيار جفنيه مضطرا مقاومته للنوم تنهار حتى انهار تماما فلم يشعر بتلك الخرفشة التي صدرت من المقعدين الخلفيين للحوامة ومجموعة من الفئران تتسلل بهدوء كأنها تحاول ألا تيقظه من نومه..

تسلق الفأر الأول الذي يبدو أنه قائد المجموعة ظهر المقعد المجاور للقائد وخلفه ثلاثة آخرون يسيرون في خط مستقيم كأنها سرية عسكرية منظمة..

لحظات وكان الأفراد الأربعة يقفون على المقعد المجاور ينظرون في هدوء كأنما يتأكدون من غطيط الرجل في نوم عميق..

اعتدل الرجل في نومته فوجه عنقه تجاه النافذة المجاورة ودون وعي مد ذراعه الأيمن ليتجه إلى المقعد المجاور باسترخاء تام..

تراجع فريق الفئران بحذر إلى الخلف قليلا حتى ارتاح ذراع الرجل تماما مادا راحتيه..

تسلق بهدوء أحد الفئران راحة الرجل الذي يبدو أنه تعمق في نومه إلى حد بعيد فلم يشعر بوزن الفأر على راحته حتى أن الفأر كاد يتسلق كم السترة العسكرية إلا أن فجأة قبضت يد الرجل على الفأر الذي أصدر صريرا عاليا كأنه يصرخ مما جعل الطيار يقفز فجأة فاتحا عينيه عن أخرهما وهو ينظر إلى الفأر بين أصابعه، فيلقي به بفزع..

حاول الطيار أن يقفز بسرعة من الطائرة إلا أن فأرا قفز بسرعة كبيرة وكأنه يطير لينشب قواطعه في عنق الرجل الذي أمسك بكرة الفراء اللينة يعتصرها محاولا تخليص عنقه إلا أن فأرا آخر قد تسلق كتفه بسرعة البرق واستدار مسرعا إلى وريده الآخر ناشبا قاطعتيه بقسوة..

لحظات جحيمية مرت على الطيار عندما شعر بتلك القواطع الصغيرة كأنها إبر تغرس في كل شبر من جسده، فخلال لحظات كانت قمرة القيادة في الطائرة تتحول إلى خلية نحل تكومت فيها عشرات الكرات من الفراء الرمادية الداكنة..

بدأت عضلات الطيار ترتخي رويدا رويدا مع نافورة الدماء المندفعة من عنقه وجسده يهتز بشدة كأنه يتعرض لتيار كهربائي، ومقلتاه تقفزان بشدة وفمه المفتوح على آخره لتتحشرج أنفاسه مع دخول هذا الفأر الصغير متسللا إلى لسانه الذي كان خارجا من فمه بالفعل فيجذبه الفأر كأنه قطعة من المطاط المرنة سرعان ما اقترب فأران آخران يعاونان رفيقهما في جذب اللسان خارجا، بينما تتجول بعض الفئران كل منها يخترق لحم الطيار الذي كان في هذه اللحظة كان قد استسلم تماما للموت..

بالأسفل على مسافة بضع طوابق وتحديدا كان ذلك المختبر حيث استغرقت رغد في فحص تلك العينات التي أرسلها وليد، أما خالد وعلاء فقد استغرقا في حديث جانبي بالقرب من الطفل معاذ الذي راح في نوم عميق على أحد المقاعد وعلى ملامحه ارتسمت كل براءة الطفولة..

فجأة انتبه خالد بطريقة غريبة، مما جعل علاء يسأله متعجبا:

. ماذا بك؟

. لقد خيل لي أنني سمعت صوتا ما!

كان خالد يقول عبارته همسا، أطرق علاء بدوره السمع للحظات قبل أن يكفهر وجهه فجأة قائلا بصوت ارتفع بالرغم عنه:

. أنها أنابيب التكييف!!

انتبهت رغد بفزع إليهما قائلة:

. ماذا هناك؟

أشار خالد إلى فتحة التهوية المغلقة بشبكة بلاستيكية مثبتة بأربع مسامير، وقال:

. هناك..

التفتت رغد حيث يشير وقد احتقن وجهها، في حين صرخ علاء وهو يشير إلى فتحة أخرى مشابهة:

. وهناك..

اندفع خالد بخفة محاولا اكتشاف الأمر في أقرب الفتحات إليه محاولا تدقيق النظر عبر الفتحات الضيقة للشبكة ليقول صارخا:

. فئران!!

وكأن كلمته بمثابة زر تندفع بعده الفئران بصرير صك آذانهم والشباك تهتز بقوة كأن من يدفعها من الجانب الآخر..

. علينا الخروج حالا..

قالها علاء، إلا أن رغد قالت بإصرار:

. يلزمني عدة دقائق أخرى..

تبادل علاء وخالد نظرات قلقة قبل أن يندفع الأخير رافعا أحد المقاعد باتجاه الشبكة ليسدها مقاوما بكامل طاقته وهو يصرخ قائلا:

. لتنهي المهمة الآن..

لم تجب رغد التي عاودت عملها بسرعة في حين قلده علاء فحمل مقعدا آخر واتجه إلى الفتحة الأخرى..

خف الدفع من داخل الأنابيب قليلا قبل أن يستبدل بصوت آخر جعل الجميع يشعرون بقلوبهم ترتجف بشدة..

***

كان باب مختبر قسم الكهرباء بكلية الهندسة جامعة القاهرة مفتوحا على مصراعيه، لقد تركه رامي مفتوحا عند دخوله..

وقف آسر ورامي فاغري الأفواه جاحظي العيون وهم ينظران إلى ذلك الجيش من الفئران التي ارتكزت على قوائمها الخلفية في صفوف منتظمة كأن كتيبة المشاة المكونة من تلك الحيوانات الصغيرة تقيم الموقف وتقيس قوة خصومها القادمين..

كان آسر أول من انتبه إلى خطورة الموقف، فمد يده إلى الخلف متحسسا شيئا ما للحظة قبل أن يلتفت بسرعة منتزعا ماسورة معدنية من الطاولة خلفه، تستخدم كحاجز قصير لا تتخطى ستون سنتيمترا على أكثر تقدير، ليعود ويلتفت بسرعة شارعا هراوته الحديدية فيصد بها أول هجمة شنها جزء من الفئران في حين ظل الباقون ثابتون مكانهم يتابعون زملاءهم يتطايرون كأنهم كرات جولف..

أما الفوج الثاني الذي قد هاجم رامي الذي نحت الذعر ملامحه وعلى وجهه بدقة فلم يمتلك سلاحا غير حذائه مستخدما إياه في ركل كرات الفراء، ولعل لو رآه أحد مدربي أندية القمة في هذه اللحظة لتعاقد معه فورا..

مع فشل الهجوم الأول كانت الموجة الثانية تكتيكية بحتة من الفئران حيث انقسمت المجموعة إلى صفين سار كل منهما بمحاذاة الجدار في خط مستقيم على ناحيتي الباب وسرعان ما وجدا

الصديقان نفسيهما داخل دائرة مغلقة وأحد الفئران يصدر صريرا مميزا كأنه صفير معلنا بداية الهجوم، لتضيق الحلقة فجأة حولهما:

. الطاولة..

قالها آسر صارخا ليقفز بسرعة أعلى الطاولة التي اقتلع منها الحديدة..

أما رامي فقد ألجمه الرعب فشعر بعضلاته تتيبس فجأة رافضة الاستجابة مما أعطى الفرصة لفأرين تسلق كل منهما ساقيه بسرعة متجهين إلى عنقه مباشرة مما جعله يلوح بيديه في ذعر شديد ويصرخ كطفل يستغيث بوالديه وهو يتراجع عدة خطوات وحركات عصبية عشوائية قبل أن يسقط على ظهره على طاولة الجهاز الذي كان يعمل عليه آسر فتصطدم رأسه بالجهاز، فيتكئ على الطاولة محاولا النهوض وفجأة..

تجمدت الفئران دفعة واحدة كأنها لقطة من مشهد سينمائي تم توقيفه.. استمر الأمر لحظات قبل أن تصرخ الفئران كلها دفعة واحدة مصدرة صرير مدوي وتهرع إلى الخارج مسرعة بعشوائية غريبة تناقض تماما نظامها العجيب في البداية، حتى أن الفئران كانت تصطدم ببعضها البعض أو بالجدران وكأنها فقدت الرؤية فجأة!!

كانا الشابان يتابعان الموقف وعلامات الدهشة تطل بظلالها على وجهيهما خاصة رامي الذي ظن للحظات أن تلك القواطع الدقيقة أقرب ما يكون لقبض روحه من بين ضلوعه حتى كاد يستسلم بالفعل متمنيا فقط أن يتم الأمر بدون ألم!!

استغرق الأمر جزءا من دقيقة قبل أن يتردد صرير ربما مئات الفئران عبر أروقة الكلية مما جعل آسر يتجه إلى الباب ليرى حشود تكاد لا نهائية من الفئران تسرع متخبطة إلى الخارج..

. ماذا حدث؟!

كانت الجملة الأخيرة التي ينطقها رامي قبل أن يسقط فجأة فاقدا الوعي..

***

. لا مستحيل لقد نثرت الفلفل الأسود في المكان كله!!!!

قالها حسين صارخا بشدة وهو يرى عشرات من تلك الكائنات الرمادية تغزو حجرة تجاربه السرية عبر الباب الفولاذي..

كانت الفئران تتسلق كل شيء تقريبا حوله بسرعة جنونية، وهي تقترب منه بسرعة وهو يصرخ:

. لا إلا أنا فأنا صانعكي.. أنا من منحتكم تلك القوة؟

لكن جحافل الفئران لم تتوقف بل بدأت في تسلق بنطاله، لكنه اندفع بكل قوته عابرا الباب ليمضي بضع خطوات قبل أن يتعثر ويسقط فجأة فتصطدم رأسه في سطح زجاجي فيتحطم متناثرا كشظايا زجاجية..

مسح حسين خيط دم رفيع انساب من أعلى رأسه على عينيه، ليستطيع الرؤية، ليصرخ فجأة بكل ما أوتي من قوة..

كان يقف أمامه مباشرة أخر شيء يتوقعه إنه الجرذ* الضخم الذي أجرى عليه تجاربه، كان الجرذ ينظر إليه نظرة ذات معنى وكأن لسان حاله يقول "ها نحن أخيرا وجها لوجه".

كان من العجيب مشهد الفئران التي كادت تلاحقه خارج الحجرة لكنها توقفت فجأة عند رؤيتها لذلك الجرذ العملاق وكأن أصابها الفزع فجأة..

أشاح حسين بوجهه بعيدا محاولا استطاعة الوقوف لكن الجرذ العملاق انقض عليه كأنه صاعقة من السماء وبسرعة البرق انتزع حنجرته من مكانها يلتهمها بشراهة المنتقم، لتتجرأ بعض الفئران فتنتزع عدة أصابع مشاركة بدورها في تلك الوليمة..

أما حسني فلم يعي بكل ما حدث حيث تفجرت أحشاؤه أثناء غيابه عن الوعي وجابت في جسده المتفتح بعدة فجوات عشرات الفئران..

***

في نفس اللحظة التي صرخت فيها رغد انتهيت..

اندفع علاء يلتقط معاذ النائم على مقعده متجها إلى ممر طويل وخلفه رغد التي انطلقت مسرعة وخالد الذي استطاع جذب الباب خلفه إلا أن سرعة الفئران جعلته يتركه مواربا..

. إلى أين؟

قالتها رغد التي تلاحقت أنفاسها من العدو عبر ممرات الهيئة، فقال علاء:

. السطوح الطائرة هناك..

انحرفوا يسارا إلى ممر آخر أقصر من الأول ليجدوا أمامهم المصعد، كاد علاء أن يجذب المقبض لولا صراخ رغد:

. لا أنهم هناك..

كان صوت الصرير واضحا إلا أن علاء لم ينتبه بين صوت أنفاسه المتلاحقة..

اتجهوا بسرعة إلى السلم والمسافة تضيق بينهم وبين فيض الفئران المطاردة..

نجحوا في الوصول إلى باب حديدي ضيق وقد انقطعت أنفاسهم تقريبا وصرخات الطفل الذي استيقظ على هذا العدو والصراخ تصك أذانهم وتلهب كذلك فؤاد والدته..

ظهرت مؤخرة الطائرة أمامهم كان علاء قد وضع الطفل أرضا وانحنى في نوبة سعال متواصلة وأنفاسه تتلاحق بشدة وهو يقول بصوت متهدج:

. إنها السجائر اللعينة..

التقطت رغد ابنها في حين كان خالد قد سبقهم بعدما تأكد من غلق الباب جيدا..

وصلا إلي الطيار فوجداه متحجرا أمام قمرة القيادة وفكه السفلي يكاد يلامس الأرض وعيناه تقفزان داخل الكابينة..

اقتربت منه رغد وهالها ما رأته فضمت طفلها بقوة دافنة رأسه في صدرها..

. ماذا حدث هنا؟!

صرخ بها علاء فأمامهم كان وجه أو بقايا وجه الطيار فاغر الفم وجزء بسيط من لسانه يتدلى وقد اجتمعت عليه حشرات الذباب الأزرق بطنينها المزعج، وفجوتين موضع العينين وعنقه ممزقة تماما..

. لقد فعلوها؟

قالها خالد بصوت مبحوح يكاد يرفض الخروج..

. إذن نحن سجناء هنا؟

قالتها رغد بهلع وهي تضغط جسد طفلها، فنظر إليها الرجلان وصمتا..

صرخت فيهما تحثهما على التصرف:

. ألا يجيد أحدكم قيادة هذا الشيء؟

لم يجب أي منهما وكأن سهم الله أصابهما..

نظرت إلى خالد صارخة وهي تضرب صدره بقبضتها:

. ألست ضابطًا؟

سقط خالد جالسا على الأرض كأنه يعلن استسلامه وهو يقول كأنه ينتحب:

. أنا عالم ولست طيارا..

سقط علاء بدوره وكأنه يعلن استسلامه هو الآخر:

. يبدو أنها النهاية!

عضت رغد شفتها بأسى وعينيها تترقرق بدمعات حاولت منعها من الانهمار وبصرها شاخص إلى السماء تنتظر معجزة..

صوت خرفشة قوي على الباب المعدني الصغير، تذر بالخطر المحدق قريبا على مسافة خطوات قلائل..

كان يبدو أن الرجلين قد استسلما تماما، فـ علاء قد دفن وجهه بين ركبتيه وجسده كله ينتفض بشدة كمن أصابته الحمى.. أما خالد الذي جلس إلى جوار سقف التهوية وهو عبارة عن بناء مربع يرتفع عن أرضية السطح بمتر ونصف المتر تقريبا ومغطى من الأعلى بمصفاة أو شبكة حديدية على شكل إطار تتخلله قضبان رفيعة بشكل أفقي..

كانت رغد تتحسس طفلها بقلق وهي تنظر إلى الرجلين المنهارين، لكن شيئا ما أو حدسا ما بداخلها ينبئها أنه ما زال هناك أمل!!

فدارت حول نفسها باحثة عن مخرج من هذا المأزق، فكل محركات عقلها تعمل في هذه اللحظة لضمان سلامة طفلها، فهي لا يعنيها إنقاذ نفسها الآن..

. من المؤكد أن هناك مخرجا ما؟

غمغمت بها رغد وهي ما زالت تتجول بعينيها بحثا عن باب ما..

. لقد انتهى الأمر!

قالها علاء في وجل وخنوع.. استفز رغد التي صرخت بهيستيريا قائلة:

. هناك حتما أمل ولو واحد في المائة مليون..

. علاء احترس...

كانت هذه الصرخة التي زلزلت كيان علاء تخرج من حنجرة خالد وهو يشير إلى خلف علاء مباشرة عند تلك المصفاة التي تغطي مبنى التهوية..

جحظت عينا رغد وهي تضغط على طفلها تكاد تعتصره، وهي تنظر إلى ذلك الفأر الصغير الذي خرج توا من بين القضبان الحديدية، فالحقيقة جلية أنه فأر استطلاع ليتبعه عشرات الفئران صغيرة الحجم..

كاد علاء أن يلقي بنفسه بعيدا إلا أن الفأر كان أسرع فقفز على كتف علاء الأيمن بسرعة مما جعله يقفز بهيستيريا محاولا التخلص من الفأر..

انطلقت قبضة خالد لتقبض على ذيل الفأر نازعا إياه بقوة من فوق ملابس علاء مطيحا بالفأر إلى أبعد مسافة ممكنة ليسقط الفأر في الشارع..

كانت القلوب تشتد خفقاتها، والصرير يزداد بشدة ليظهر سيل آخر من الفئران الأكبر حجما عابرا سور السطح فيبدو أنهم قد تسلقوا أنابيب المياه والصرف..

الوضع يزداد تعقيدا في هذه الأثناء فالسطح تحول بسرعة خارقة لغابة من الفرو البني والرمادي فبسهولة ويسر على غير المتخصص أن يلمح عدة مجموعات من الفئران تنتمي لأنواع مختلفة..

كانت رغد تتصبب عرقا من كل مليمتر من جسدها وأنفاسها تتلاحق بشدة وهي تحتضن معاذ الطفل..

أما علاء الذي كان جسده يرتجف بشدة كأن روحه تستعد لمغادرة ضلوعه الآن وخالد الذي أخذ يحرك رأسه في جميع الاتجاهات كأنه يحصي عدد الفئران المتزايد والعرق يغطي جبهته..

. ماما..

صرخ معاذ بشدة وهو ينظر إلى خلف والدته عبر كتفها لتلتفت بسرعة، وما كادت حتى أمامها مباشرة مقابلا لوجهها فأرا ضخما متسلقا لأحد الجدران، وقبل أن تفكر في التراجع قفز الفأر كفهد ينقض على فريسته ليتعلق بجسد الطفل الذي صرخ فزعا وهو في حضن أمه..

كانت مخالب الفأر مغروسة في ملابس الطفل وقواطعه تستعد للانقضاض على لحم الطفل الطري..

في الوقت نفسه شعرت رغد التي حاولت مد يدها لالتقاط الفأر باشمئزاز من على ظهر طفلها، شعرت بمخالب صغيرة على ساقها لتجد فأرا يتسلق بنطالها صاعدا إلى أعلى..

ركلت رغد الهواء عدة مرات محاولة التخلص من الفأر الذي ظل متشبثا بقماش بنطالها بقوة..

على الجانب الآخر كان علاء ينظر إلى الفئران بفزع منقطع النظير جعله في وضع أشبه بالشلل وبين شفتيه يتساقط لعابه بطريقة غريبة..

أما خالد فكان الأكثر تفاعلا حيث سيطرت طبيعته العسكرية عليه فجأة وساعده حذاؤه العسكري الذي يرتديه بعنقه الطويل وسماكته فركل عدة فئران بقسوة وسحق بعضها لتصدر عظامها المهشمة أصواتا تبث القشعريرة وبسرعة البرق التقط معاذ من والدته وهو يقبض على عنق الفأر بقوة ليكسر العنق الصغير ويلقي بجثته بعيدا فتجتمع حول الجثة عددا من الفئران الصغيرة للحظات تاركة خلفها هيكلا عظميا للفأر..

أما رغد فبامتعاض شديد مدت يدها ممسكة الفأر الذي يتسلقها مطوحة به في الهواء مع صرخة مفزوعة..

أما علاء فتحول جسده فجأة لخلية من الفئران تتسلقه بسرعة فيستطيع بصعوبة التغلب على حالة الشلل الناتج من الخوف ويلوح بيده في كل الاتجاهات بهيستيريا فأحد الفئران كان ينشب مخالبه في وجهه وجسده الفرائي يسد عينيه وأنفه ورائحة نتنة تملأ رئتي علاء الذي فقد الرؤية تماما فانطلق يعدو في كل مكان حتى سمع خالد ورغد صوت صرخة علاء تتباعد وهو يسقط من أعلى سطح المبنى وعلى جسده عدة فئران ليصنع نهايته بنفسه..

أما رغد وخالد كانا يواجهان هجوما ضاريا بالفعل..

***

الفصل الأخير

على بعد أقل من كيلو متر واحد من مبنى الطب البيطري كان رامي يفتح عينيه ليجد وجه صديقه آسر أمامه مباشرة..

كانت الرؤية ضبابية بعض الشيء في عيني رامي لكن سرعان ما بدأت في التحسن وهو يقول بصوت مرتجف:

. ماذا حدث هنا؟

ابتسم آسر وقال:

. حمدالله على سلامتك يا صديقي.

. ماذا حدث هل.. هل نجونا؟

ابتسم آسر مطمئنا ثم قال مازحا:

. يبدو أنك أخفت الفئران ففرت هاربة كأن أصابها مس من الشيطان..

ضحك رامي بالرغم منه وهو يعتدل جالسا على أرضية المختبر متكئا بظهره على رجل إحدى الطاولات وقال:

. الحمد لله لقد كدت أموت خوفا..

ضحك آسر بشدة وهو ينظر إلى وجه صديقه الطفولي النحيل، قبل أن يتسم بالجدية فجأة:

. لكنه أمر عجيب حقا لقد توقفت الفئران فجأة عن مهاجمتنا ثم فرت فزعة كأنها أصابها الجنون، هل تجد ذلك منطقيا؟!

مط رامي شفته قائلا:

. الأمر غريب حقا، ولكن هل تأكدت أن أحدها ليس موجودا هنا؟

قال آسر بدهشة:

. لقد رأيتها كلها تفر هاربة!!

. إذن ما مصدر ذلك الصوت؟ ؟

أرهف آسر السمع للحظات حتى التقطت أذنه أزيز خافت، فضحك ساخرا وقال:

. أيها الرعديد، إنه صوت جهازي لقد عاد إلى العمل..

تنهد رامي ارتياحا وقال وهو يمسح جبينه من حبات عرق افتراضية:

. أوه يبدو أنني ضغطت زر التشغيل أثناء سقو.....

لم يكمل عبارته وقد اتسعت حدقتاه بشدة وصرخ قائلا:

. نعم أنه الجهاز عندما ضغطت زره دون قصد توقفت الفئران فجأة قبل ذعرها وهربها..

رفع آسر حاجبيه دهشة وقال:

. ولماذا جهازي تحديدا؟

مط رامي شفتيه وقال:

. لا أدري تماما لكن هذا حدث وكفى..

ساد الصمت لحظة قبل أن تهلل أسارير آسر ليقول هاتفا:

. نعم صحيح..

وطبع قبلة على خد صديقه الذي اشمئز بطريقة كوميدية ومسح خده كمن يزيل آثارها، في حين أردف آسر قائلا:

. رباه كيف فاتتني هذه النقطة..

. أية نقطة؟

جلس آسر على الأرض قبالة رامي وقال باهتمام كما لو أنه يستعد لإلقاء محاضرة هامة:

. لقد أخبرتك أن هدفي من هذا الجهاز هو معالجة مشكلة التأتأة التي يعاني منها أخي؟

هز رامي رأسه موافقا وقال:

. نعم لكن ما علاقة الأمر بالفئران؟

ابتسم آسر وقال:

. بل الفئران أصحاب الفكرة أصلا.. إن الفكرة حقيقة ليست إبداع كامل لي، بل اعتمدت في فكرتي على أبحاث قام بها علماء اكتشفت أن الفئران والجرذان تصدر بعض الأصوات الخفيفة من خلال الموجات فوق الصوتية لجذب شريكها والدفاع عن أراضيها. وبعد إصدارها لهذه الضوضاء، غير المسموعة للبشر لغزًا حتى الآن. واكتشف الباحثون في دراسة جديدة الطريقة الفريدة التي تطلق بها القوارض هذه الأصوات. وتخرج الفئران الهواء القادم من القصبة الهوائية إلى صندوق الصوت لإطلاق صافرة عالية النبرة، تشبه الضوضاء التي تخرج من المحرك النفاث، وتأتي أهمية هذا الاكتشاف في أن دراسة "أغاني الحب" التي تصدرها الفئران قد تساعد في الوصول لعلاج من

"التأتأة" و"التوحد"، ومن خلال هذا جاءتني فكرة جهازي الذي يعتمد على إصدار موجات فوق صوتية..

نظر إليه رامي ببلاهة وتساءل:

. مازلت لم أعي لماذا فرت الفئران عند تشغيل الجهاز؟!

ضحك آسر بشدة ساخرا من غباء صديقه قبل أن يجذب ياقة قميصه بعنف مازحا:

. ألا تفهم؟! ! إذا كانت الفئران تصدر ذلك النوع من الترددات فوق الصوتية للتخاطب فيما بينها فهي حتما تسمعها..

. وإذا كانت معتادة على استخدامها لماذا أخافتها؟!

تراجع آسر مطلقا زفرة حارة وهو ينظر مباشرة إلى عيني صديقه ويقول:

. ربما تردد موجات الجهاز عالية جدًا وبهذا تلتقطها آذان الفئران الحساسة كضجيج مزعج يثير رعبها ويفقدها تركيزها..

هز رامي رأسه ليثبت أنه لم يفهم حرفًا واحدًا إلا إنه قال:

. ما يهمني الآن هو الانصراف وبسرعة..

هز آسر رأسه موافقًا وقال:

. لكن لنأخذ سلاحنا الآن فهو سبيلنا الوحيد لدرء الخطر..

. لكن كيف سنستفيد به مع عدم وجود كهرباء؟؟

قال آسر وهو يغمز بعينه:

. لقد دعمته ببطارية..

حمل آسر الجهاز وخرجا بسرعة من مبنى الكلية ليجدا نفسيهما في شارع جامعة القاهرة.

. لقد تركت سيارتي عند ميدان الجيزة فالطريق مسدود بالسيارات والحافلات المهجورة..

قالها رامي، فأجاب آسر إذن علينا السير الآن..

انطلقا بسرعة في اتجاه ميدان الجيزة حتى انحرفا جهة اليمين في اتجاه فيصل وهناك توقف آسر فجأة..

التفت إليه رامي متعجبًا وقال:

. لماذا توقفت الآن.. السيارة على بعد خطوات!!؟

. هناك صوت صرخات!

انتبه رامي فالتفتا باتجاه سور هيئة الطب البيطري ليريا من بعيد جسدا يسقط من أعلى وصوت الصرخات..

. أحدهم بالأعلى..

قالها آسر، لكن رامي قال معترضًا:

. ومالنا نحن؟!

جذبه آسر من ذراعه واتجه ناحية باب حديدي متوسط الارتفاع وقال وهو يضغط زر تشغيل الجهاز:

. سأقفز بالداخل وأنت ناولني الجهاز ثم اتبعني..

لم ينتظر إجابة وهو يتسلق الباب الصدئ ويقفز إلى الجانب الآخر ويمسك بأنفه متأففًا من الرائحة الكريهة فلقد دخل من جهة المحارق التي تستخدم لحرق الكلاب النافقة بعد قتلها..

وفي أعلى المبنى كانت رغد وخالد قد اشتد عليهما الحصار، وقد بدأت الفئران تستعد لهجومها الأخير والقاضي.. وفجأة ودون سابق إنذار توقف كل شيء تماما، ليس هذا فقط بل كانت الفئران كلها تصرخ دفعة واحدة وهي تجري في كل مكان دون اتجاهات محددة، حتى أن بعضها أخذ يقفز من أعلى السطح وكأنه يهم بالانتحار..

استغرق الأمر دقائق ليعي كل من رغد وخالد أنهم في مأمن الآن، حتى أن خالد تجرأ واتجه إلى الباب الحديدي ليفتحه، وما أن مد يده إلى مقبض الباب حتى تجمدت الدماء في عروقه..

لقد وجد المقبض يستدير دون أن يلمسه والباب يفتح ليظهر آسر أمامهما..

***

كان كل من وليد والعميد صلاح والعقيد طه داخل سيارة الجيب العسكرية والعميد صلاح خلف مقود السيارة التي تسير متعرجة وتقفز قفزات متتالية، فيبدو أن الرجل لم يقد سيارة منذ زمن بعيد..

لقد بدأ الأمر بموجة عارمة من هجوم الفئران على المعسكر الميداني ورغم قوات الأمن العسكرية وأسلحتها التي انطلقت بوابل من النيران يحصد عشرات الفئران، إلا أن القوات كانت قد بدأت تتراجع أمام الغزوات المتلاحقة والهجمات المتكررة من الكائنات الصغيرة، بل أن عددا من الجنود قد سقطوا ضحايا تحت وطأة القواطع الصغيرة الحادة..

تفاجأ الرجال الثلاثة بالفئران داخل المختبر الميداني لكنهم نجحوا في الفرار بمساعدة وليد الذي التقط سكين تقطيع مختبري وصنع فجوة في الجدار البلاستيكي الرقيق للمختبر ليقفزوا داخل سيارة

الجيب العسكرية ليجد صلاح نفسه أمام مقود السيارة لأول مرة منذ سنوات..

. أين علينا الذهاب الآن؟

قالها صلاح وهو يتصبب عرقا أمام مقود السيارة، محاولا السيطرة على عجلة القيادة والسيارة..

قال وليد:

. لا أدري إن كان يجب علينا الذهاب إلى المزرعة أم إلى رغد التي انقطع الاتصال بها؟!

قال طه في أسى واضح:

. حتى الطائرة لا تجيب!!

كان القلق في هذه اللحظات يعتصر فؤاد وليد الذي يفكر الآن في زوجته وابنه وماذا قد يكون قد حل بهما..

أخرج طه جهاز اللاسلكي بعيد المدى وضغط زره مناديا في رتابة:

. هل يتلقاني أحد؟.. هل من مجيب؟

مرت لحظات قبل أن يصدر تشويش بسيط وفجأة صوت خالد ينطلق صارخا:

. سيادة العقيد حمدالله على سلامتك؟

تهللت أسارير الجميع فجأة لسماع صوت خالد فقال وليد وهو يختطف الجهاز من يد طه بفجاجة:

. رغد.. أين رغد ومعاذ..

أتته الإجابة كأنها برد وسلام على قلبه المحترق، صوت رغد

. وليد نحن بخير لكن الدكتور علاء رحمه الله..

كان صوتها متهدجا بشدة..

. أين أنتم الآن؟

سألها وليد في لهفة، فأجابت قائلة:

. نحن عند الهليكوبتر الآن وقد قتل قائدها ونحن محصورون على سطح المبنى..

. هل أنتما في مأمن من الفئران؟!

قالت رغد بصوت سعيد نوعا ما:

. بل نمتلك سلاح الردع أيضا، لكن لا يمكن شرح الأمر هنا يجب أن نجدكم..

ضغط وليد شفتيه بألم وقال:

. لقد تمت مهاجمة المعسكر ونحن مشردين الآن..

قال طه متدخلا:

. إذا كانا يمتلكان حلا فليقابلوننا عند مبنى الحرب البيولوجية..

نقل وليد الرسالة إلا أن صوت خالد جاءه عبر الأثير قائلا:

. لا يمكننا الوصول إلى هناك ولا يمكننا قيادة الطائرة؟

نظر طه إلى وليد قائلا:

. ناولني الجهاز يمكنني مساعدتهم..

دون تردد دفع وليد باللاسلكي إلى العقيد الذي نادي قائلا:

. خالد هل أنت تسمعني؟

. نعم سيدي

. أعتقد إن لم تخني الذاكرة إن الطائرة من طراز (ميج 8) روسية الصنع لهذا اتبع تعليماتي..

ساد صمت بسيط وما زال العميد صلاح منهمكا في محاولة الوصول إلى الطريق الممهد وقد عرف وجهته الآن..

وعلى الجانب الآخر كان خالد يشير إلى رغد وآسر ورامي اللذين حملا جهازيهما وقفزا داخل الطائرة بسرعة في حين جذب خالد جثة الطيار خارجا وقفز محتلا مكانه..

وعلى ترددات اللاسلكي كانت تعليمات العقيد لتهدر محركات الطائرة من جديد متجهة بسرعتها القصوى التي تبلغ 250 كيلو مترا / الساعة..

كان كل من آسر ورامي اللذين وعيا تماما أنهما بين يدي طيار ليس محترفا تماما يشعران بالتوتر بشدة إلا أن ما سمعاه من مجهود خرافي بذله هذا الفريق في الوصول إلى حل المشكلة وشرح آسر لمصادفة جهازه جعلاه يشعر بمسئولية تجاه الوضع..

استطاع خالد بمعاناة الهبوط بالطائرة في منطقة صحراوية ممهدة على مقربة من مبنى معسكر الحرب البيولوجية، لقد كان من المستحيل عليه الهبوط في المساحات الضيقة داخل المبنى..

كان لحسن الحظ المبنى ما زال آمنا فيبدو أن الفئران فضلت الأماكن العامرة من أجل الغذاء..

***

بعد ساعتين تقريبا كان الجمع قد اكتمل ويتوسطهم آسر شارحا فكرته قائلا باهتمام:

. إن جهازه يعمل على بث موجات فوق صوتية لا تستطيع أذن الإنسان سماعها، فالأذن البشرية تستطيع سماع موجات تتراوح ما بين 20 و2000 هرتز أما الفئران فيمكنها استقبال موجات أعلى من ذلك وهي ما يطلق عليها موجات فوق صوتية، فيكون الصوت بالنسبة لها كضجيج مرتفع يشعرها بالذعر وعدم الاتزان، وهو ما حدث في مختبر كلية الهندسة وكذلك في مبنى الطب البيطري..

قال خالد:

. لقد شاهدت بالفعل دعاية عن أجهزة لطرد الفئران باستخدام نفس التقنية لكن هناك ملاحظات كثيرة عليها أثبتت فشلها..

ابتسم آسر وهو يقول:

. هذا صحيح فتلك الأجهزة مبدأيا تبث موجات ضعيفة تأتي بفاعلية وقتية لكن كالبشر مثلا إذا افترضنا شخصا قادم من الريف الهادئ إلى زحام العاصمة فهو يشعر بالضوضاء وينزعج بشدة لبعض الوقت، لكنه بمرور الوقت يعتاد الأمر، وهذا تحديدا ما يحدث لدى الفئران التي سرعان ما تعتاد ضجيج هذه الموجات المنبعثة من الجهاز ثابت التردد..

قال وليد متسائلا:

. هذا يعني أن جهازك سيكون بعد فترة ليس ذو قيمة؟!

هز آسر رأسه موافقا.. فأردفت رغد التي تحتضن ابنها قائلة:

. هذا يعيدنا إلى نقطة البداية!!

. أعتقد الحل بسيط؟

نظر الجميع إلى رامي الذي أحمر وجهه خجلا من هذا الاهتمام المفاجئ لكنه تنحنح وقال:

. ربما لم أعي معظم حديثكم العلمي هذا، لكن هناك نقطة ذكرها آسر ربما هي مربط الفرس إذا كنت أحسنت الفهم..

قال آسر مشجعا صديقه:

. ما هي؟

. التردد.. إذا كانت الفئران تعتاد التردد فلماذا لا نقوم بتغييره كل فترة؟؟

بطريقة تلقائية جذبه آسر وقبله وسط ضحكات الجميع وخجل رامي الشديد والأول يصرخ:

. هذا هو الحل المنطقي، كما أن الأمر ليس مستحيلا..

تنحنح العميد صلاح قائلا:

. ربما لست متخصصا لكن نحن في المخابرات ندرس أجهزة البث والإرسال بحكم عملنا، ومنها أستطيع القول إن الأمر ليس علاجا قاطعا للمشكلة..

قال آسر متعجبا:

. ولم؟!

. لأننا لا نضمن وصول الترددات إلى جميع الفئران فأنت تعلم أن بعض المواد لا يمكن لتلك الموجات اختراقها..

ساد الصمت على الجميع بعد حديث العميد الذي بدا محبطا..

قطع آسر الصمت بحماسه وهو يقول:

. لها حل..

تعلقت أبصار الجميع به وهو يقول مرحا:

. يمكننا استخدام أجهزة بث التليفزيون وكذلك محطات التقوية المنتشرة في كل مكان وبهذا نصل إلى أقصى حدود البث..

. لكن لا تزال المشكلة الرئيسية قائمة؟!

قالها خالد في يأس، فسأله طه قائلا:

. وما هي؟

. ما زال لدينا فئران شديدة الذكاء وعنيفة لا يأمن شرها!!

كان حديث خالد منطقيا لكن رغد تدخلت قائلة:

. يمكنني حل مشكلة الذكاء بصنع عقاقير تقلل من وظيفة بروتين جي أيه بي 45 وإذا استطعنا إيصاله للفئران الصغيرة فستعود مع بعض الوقت إلى طبيعتها مع الأجيال اللاحقة..

. ومن هنا يمكن وقف العنف..

نظر الجميع إلى خالد الذي قال معتدا بنفسه مستدرجا:

. نحن نعمل بالبيوتكنولوجي أو التكنولوجيا الحيوية ومنها يمكن إنتاج هرمون الإستروجين..

قال وليد:

. صحيح فسبب العدوانية هو هرمون الذكورة لهذا يجب معالجته بالنقيض هرمون الأنوثة..

قال صلاح:

. وبهذا يكون جهاز آسر مسكن قوي وفعال..

تنهد الجميع ارتياحا بتلك النتيجة التي توصلوا إليها شاكرين الله تعالى على وجود مثل تلك العقول في مصر..

***

الخاتمة

كان من اليسير عند التجول في كل شبر من أرض مصر أن تلمح عاملا يتسلق أحد أبراج البث لزرع جهاز الموجات فوق الصوتية الذي صنع منه العشرات بسرعة فائقة داخل مصانع الجيش التي وفرت كل جهودها لذلك..

وعلى جانب آخر كانت أجهزة الكشف تعمل بسرعة لكشف تجمعات الفئران يتبعها متخصصو مكافحة الآفات لنثر الأطعمة المشبعة بهرمون الإستروجين والذي كانت فعالة فالفئران بعد عملية الاستكشاف وعدم ظهور أي مواد سمية كانت تقبل بسرعة على التقاط الأطعمة خاصة أن أجهزة البث منعتها من التجول بحرية، فكانت في حاجة إلى الغذاء..

***

بعد عدة أشهر كانت القاهرة قد عادت إلى ذلك الزحام المقيت وعلى بعد كيلومترات عند حدود العاصمة الأكثر ازدحاما في العالم تحديدا مطار القاهرة، كان العميد صلاح والعقيد طه وخالد وآسر يودعون رغد ووليد اللذين قررا العودة إلى عملهم في أمريكا..

لحظات من الوداع الحميمي البالغ قبل أن تصعد الأسرة الصغيرة سلم الطائرة التي حلقت في السماء..

نظر وليد إلى رغد ومعاذ وهو يضغط يد الأولى قائلا:

. كل ما كان يقلقني هو أنتما..

ابتسمت في حنو قائلة:

. لقد أبليت حسنا يا حبيبي..

. بل أنتِ من أثبتت أن المرأة يمكنها فعل الكثير..

انطلقا ضاحكين، وقد كانت الطائرة قد استقرت في الجو فقفز الطفل من مقعده وهما يتابعانه بابتسامة عذبة..

انطلق الطفل بين مداعبات الركاب وضحكاته الطفولية ليجد نفسه أمام سلم حديدي يهبط إلى مخزن الشحن حيث الحقائب والبضائع..

فتح معاذ الباب وأطلق ضحكة مرحة وهو ينظر إلى تلك القطة الشيرازية الصغيرة داخل قفص صغير..

مد الطفل يده مداعبا القطة التي انتصبت أذناها فجأة وأصدرت صوت البخيخ المعروف لدى القطط وهي تنظر إلى نقطة خلف الطفل..

التفت الطفل ليرى هاتين العينين الدائريتين تنظران إليه بقسوة وقاطعتين ضخمتين تبدوان من بين شفتي الفأر العملاق.. فأطلق الطفل صرخة هزت أرجاء الطائرة..

***

. أهم المراجع

*موقع Live Science

*رويترز الإخبارية

*مجلة العلوم العلوم العدد الخامس 2001

* كتاب إنتاج فئران أكثر ذكاء تأليف Joe Z. Tsien

* ويكيبيديا "الموسوعة الحرة"

* مواقع علمية على الإنترنت

* عدد من الأخبار الصحفية العلمية المتفرقة

. مراجع للاستزادة

THE ORGANIZATION OF BEHAVIOR: A NEUROPSYCHOLOGICAL THEORY. Donald O. Hebb. John Wiley, 1949

MEMORY AND BRAIN. Larry R. Squire. Oxford University Press, 1987

A DECADE OF PROGRESS? Robert C. .TERM POTENTIATION .LONG .Malenka and Roger A. Nicoll in Science, Vol. 285, No. 5435, pages 1870 1874; September 17, 1999

ENHANCING THE LINK BETWEEN HEBB'S COINCIDENCE DETECTION AND MEMORY FORMATION. Joe Z. Tsieri in Current Opinion in Neurobiology, Vol. 10, No. 2; April 2000

Scientific American, April 2000